AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

فرنسیسکو کیبیدو

مكتب الترجمة الاسبانية العربية

868
Q672 Yaf

موسى عبود

فرنسيسكو كيبيدو

١٩٥٣
دار الطباعة المغربية
تطوان

مطبعة كريماديس ـ شارع محمد الطريس ١٧ ـ تطوان (المغرب)

الاهـداء :

إلى روح أمى

المؤلف

مقدمة

فرنسيسكو كيبيدو علم من أعلام الادب الاسبانى فى عصره الذهبى وهو يحتل مقاما لا يقل عن مقام سرفانطيس . فهما فى ذلك الميدان فرسا رهان بلغا الهدف جنبا لجنب. ولذلك كان لزاما على مكتب الترجمة الاسبانية ـ العربية بعد ان قدم لقراء لغة الضاد مؤلفه «سرفانطيس امير الادب الاسبانى» ان يتبعه بهذا الكتاب عن كيبيدو .

واننا لنؤمل ان تكون هذه السلسلة من الكتب التى تعرف العرب بأمجاد اسبانيا الفكرية عاملا قويا من عوامل التفاهم والتقارب ورابطة جديدة تضاف الى ما بينها وبينهم من روابط تاريخية .

المؤلف

الفصل الاول

عائلته ـ مولده ـ نشأته ـ دراسته ـ بواكير انتاجه الادبى

ينتمى كيبيدو الى عائلة عريقة فى النسب يعود اصلها الى سنة ١١٩٦ كانت تقيم فى وادى تورانزو من مقاطعة سانطاندير الجبلية اما عائلة امه فكانت تفوق عائلة ابيه عراقة فى الحسب . وقد وضع كاتبنا بنفسه مؤلفا احصى فيه مآثر «آل بياغاس» وعدد العظماء الذين برزوا منهم من رؤساء وقواد واساقفة وحكام فجاءت لائحة طويلة تدعو الى الفخر والاعجاب.

واول من غادر وادى تورانزو من آل كيبيدو والد مؤمفنا واسمه بيدرو غوميث دى كيبيدو. ولما اضطر الامبراطور كارلوس الخامس (شارلكين) الى استخلاف ابنته الاميرة ماريا فى حكم اسبانيا لانصرافه الى امور اخرى استدعت اهتمامه اتخذت الاميرة كاتبا لها بيدرو المذكور. ولما توج زوج الاميرة مكسيميليان امبرطورا على العرش الجرمانى وتوجهت هى الى المانيا استصحبته معها. وهنالك قضى عدة سنوات الى ان رجع الى اسبانيا حوالى سنة ١٥٧٥ فعين كاتبا للملكة آنادى اوستريا زوجة فيليب الثانى الرابعة. وفى ربيع سنة ١٥٧٦ تزوج بالفتاة

النبيلة ماريا دى سانتيبانييث احدى وصيفات الملكة . وكانت تتحلى بأجمل الصفات واطيبها. وعند ما تزوجت تخلت عن وظيفتها فى القصر الملكى . وفى سنة ١٥٧٧ رزق الزوجان ابنهما البكر فسمياه باسم ابيه بيدرو. وفى السنة التالية ولدت لهما فتاة اسمياها ماريا. وفى ١٧ سبتمبر من سنة ١٥٨٠ رزقا مولودا ذكرا آخر هو مؤلفنا العبقرى فسميا ه فرنسيسكو . وقد ولد لهما بعد ذلك ثلاث بنات أخر.

وفى ٩ ديسمبر من سنة ١٥٨٦ اسلم الروح بدرو غوميث دى كيبيدو. ولما رأت ضونيا ماريا دى سانتيبانييث نفسها ارملة ولا ثروة كبيرة لها عادت الى القصر الملكى وقبلت فيه من جملة وصيفات الاميرة ايزابيل كلارا اوخنيا. وهكذا امكنها بفضل ما خلفه زوجها من املاك وما كانت تتناوله من راتب ان تقوم بعبء هذه العائلة العديدة الملقاة على عاتقها. فادخل ابنها البكر بدرو مدرسة الآباء اليسوعيين المؤسسة فى مدريد منذ سنة ١٥٧٢ وبعد ثلاث سنوات لحق به أخوه فرنسيسكو . لكن بدرو لم يلبث ان توفى بين سنتى ١٥٩٣ و ١٥٩٤ فانتقلت حقوق البكرية الى فرنسيسكو .

وقضى هذا فى مدرسة الآباء اليسوعين اربع سنوات اى منذ ١٥٩٢ حتى ١٥٩٦ تلقى خلالها مختلف العلوم اللغوية والنحوية والادبية. وقد احتفظ طيلة حياته باحترام كبير نحو اليسوعيين. وعبر عن ذلك مرارا كزميله سرفانطيس فى مؤلفاته ورسائله. ومنذ صغره كانت تبدو عليه علامات الذكاء الحاد فاسترعى بذلك انتباه والديه واعجاب معلميه .

وحيث كانت امه تشغل وظيفة فى القصر الملكى كان من الطبيعى ان يتردد كاتبنا فى ذلك العهد على القصر ويتعرف منذ صغره على حياة البلاط ويشاهد بعينيه الثاقبتين ما يحيط بها من اخطار ومنعرجات وما يلامسها من نفاق ومكر وخـداع · وادرك اواخر عهد الملك فيليب الثانى فارتسمت فى رأسه صورة راسخة عن ذلك العهد المجيد الذى عكرت صفو نهايته بعض الحوادث المؤلمة التى اصبحت تهدد بابتداء عهد التدهور ومنها انكسار الاسطول الاسبانى الذى هاجم انكلترا ثم هجوم الاسطول الانكليزى على مدينة قادس واخيرا وفاة الملك فيليب الثانى الذى حمل معه الى القبر عظمة ذلك العهد· فكلما تكلم عنه كاتبنا فى مؤلفاته صور «مثال الملوك وقدرة السلاطين· فلا غرو ان يحن كيبيدو الى ذلك العهد فى مستقبل الايام حين يدعوه انحطاط اسبانيا الى البحث فى السياسة وفلسفتها فيسيل قلمه الزرب مغدقا المديح على الملك العظيم وعهده المجيد ·

ولمـا اكـمل فرنسيسكـو الـدراسة الثانوية فى مدرسة اليسوعيين واصبح حاذقا فى اللغة اللاتينية انتقل فى اواسط شهر سبتمبر (ايلول) من سنة ١٥٩٦ الى جامعة قلعة هناريس.

كان الطلاب فى شهر سبتمبر من كل سنة يبدأون بالتقاطر زرافات ووحدانا على مدينة «قلعة هناريس» للالتحاق بجامعتها التى أسسها الكردينال سيسنيروس · فكانت الطريق بين تلك المدينة ومدريد خلال هذا الشهر لا تبرح تعج بوفود الطلبة المقبلين من كل حدب وصوب من مختلف الطبقات ، فمنهم الغنى والمتوسط الحال والفقير المعدم، ومنهم من يقبل فى عربـة ومنهم على متن

جواد او حمار، ومنهم على قدميه، كل حسب حالته. كما انه كانت هنالك عربة كبيرة تقوم بنقل المسافرين بين المدينتين مقابل اجر تتقاضاه · وعلى ثلاثة فراسخ من مدريد كان يقع الفندق المعروف باسم «بنتا دى بيبيروس» وقد ذكره فى عدة مؤلفات كل من كيبيدو ولوبى دى بيغا ولوخان دى سابيدرا فى مؤلفه «قزمان ابن الفرج» وغيرهم من كتاب ذلك العصر وقد باد اثره منذ اكثر من قرن .

وقد ترك لنا كيبيدو وصفا دقيقا فى كتابه «حياة الشاطر» الذى نقلناه الى العربية لتفاصيل السفر بين البلدتين· وهو وصف لا يمكن ان يأتى به الا من قطع تلك الطريق وتذوق طعم تلك الرحلة ·

وكانت جامعة القلعة فى سنة ١٥٩٦ فى اوج مجدها· ويقدر بخمسة آلاف وخمسمائة عدد الطلاب المنخرطين اذاك فى مختلف اقسامها · وكانت تلك الجامعة تمتاز بالجد وروح الاجتهاد والدرس · يساعد على ذلك موقعها المنعزل وطبيعتها الهادئة · بالرغم عن انتشار داء الحمى المتقطعة فيها وما اوقعته من ضحايا من بين الطلاب بسبب تكاثر المستنقعات فى فصل الشتاء. وكان للجامعة كنيسة رحبة تسمى كنيسة سان الفونصو شفيع الجامعه ، ومستشفى تحت رعاية القديس لوقا وسجن لحبس الطلبة المشوشين اذ كانت لعميد الجامعة صلاحية قضائية على الطلاب ومكتبة تضم بين جوانبها ما يربو على ١٥٠٠ مجلد بين مطبوع ومخطوط·

دخل فرنسيسكو الجامعة سنة ١٥٩٦ وانخرط فى القسم

الداخلى لكن طبيعته لم تساعده على الرضوخ لحياة النظام الداخلى فلم تطل اقامته فى «المقر المدرسى» وسرعان ما انتقل الى احد مثاوى الطلاب حيث جعل ينفق عن سعة. وقد قال عن نفسه انه انفق فى السنوات الاربع ٦٠٠ دكة وهى كمية باهظة تمكن صاحبها من العيش فى رفاهية كبيرة اذا اعتبرنا ان الثمن السنوى الرسمى المحدد بمرسوم ملكى للاقامة فى مثاوى الطلاب كان سبعين دكة لا غير.

هذا وان الدفاتر التى كان طلاب جامعة القلعة يسجلون فيها والتى لم تزل محفوظة فى «خزانة المحفوظات التاريخية الوطنية» فى اسبانيا تسمح بملاحقة كيبيدو وخلال سنى دراسته الاربع منذ التحق بكلية الفنون والفلسفة فى ٢٠ اكتوبر من سنة ١٥٩٦ الى ٣١ ديسمبر من سنة ١٦٠٠ اذ نال الاجازة. وكان فى طليعة الناجحين بين اثنين وثمانين طالبا.

وفى الجامعة اكتسب كاتبنا تجارب واسعة فخرج منها فى العشرين من سنه مجربا يقظا متاهبا للنزول الى ميدان الحياة خبيرا بأحوالها وعالما بخفاياها حكيما بشؤونها .

فى سنة ١٥٩٨ توفى الملك فيليب الثانى وفى السنة التالية تزوج خلفه فيليب الثالث وكذلك الاميرة ايزابيل كلارا اوخنيا. وفى السنة نفسها بعد زواجها بقليل غادرت اسبانيا بمعية زوجها الارشيدوق البرتو فى طريقها الى فلاندس. ويظهر ان أم كاتبنا لم تلحق بها الى تلك البلاد، ويرجح انها توفيت فى سنة ١٦٠١ لان هذا التاريخ هو آخر العهد بها. وكانت أخت

فرنسيسكو ضونيا فيليبا دى اسبينوثا قد دخلت الدير فى سنة ١٥٩٩ تحت اسم الاخت فيليبا دى خيسوس.

وقبل ان ينال فرنسيسكو الاجازة بقليل تسجل فى قسم اللاهوت فى الجامعة ولا ندرى ان كان ذلك رغبة منه فى ان يسام كاهنا او فى الانتفاع من الاموال الكنسية. لكنه لم يتم السنة الدراسية ١٦٠٠ ـ ١٦٠١ لسبب ما حاول تعليله المؤرخون بطرق شتى لكن اقربها الى الصواب هو انه دخل الكنيسة يوم الخميس المقدس من سنة ١٦٠١ وبينما هو فيها اقبل احد الرجال نحو امرأة ذات حسن ورشاقة كانت ساجدة تصلى فبعد ان وبخها توبيخا شديدا صفعها على مـرأى من المصلين، فضجت الناس لهذه الوقاحة وما كان من كاتبنا الا ان دعا الرجل خارجا وانبه على سوء تصرفه وخساسة عمله. وجرهما الجدل الى امتشاق الحسام فانقض فرنسيسكو على الرجل بضربة تركته جريحا يعوم فى دمه وما عتم ان فارق الحياة. وكان من طبقة الاشراف. فاعتصم كيبيدو بحرمة الكنيسة ثم فر الى بلد الوليد حيث البلاط الملكى ولاذ بحمى زوجة الدوكى دى ليرما وزير فيليب الثالث والمتصرف بأمره فى شؤون الدولة. فأمنته على نفسه ونجا من العقوبة بعد ان دفعت لآل القتيل كما يظن المؤرخون الدية الكافية. وهذا ما يشرح انقطاع فرنسيسكو عن الدراسة فى جامعة القلعة دون ان يتم ذلك الفصل ويقدم الامتحان عن السنة الاولـى من دراسة اللاهوت. لكنه لما استقر اذ اذاك فى بلد الوليد اخذ يتابع دراسة اللاهوت فى جامعتها.

• واثناء اقامته فى جامعة القلعة بدأ بالانتاج الادبى واول ما

الفه نثرا «نسب البلهاء» واتبعه بمؤلفين آخرين من النوع نفسه وهما : «قران الزواج بالشباب» و «أصل الحماقة وحدودها» وهذه المؤلفات الثلاثة نواة قسم كبير مما انتجه فيما بعد من المؤلفات الهجائية .

وفى سنة ١٥٩٩ اخرج «حياة العاصمة والمهن المسلية فيها» وهى تصوير دقيق لحياة الاشرار ، ثم «العقود الزوجية» . وفى السنة التالية انتج «المنشور المأمور به فى سنة ١٦٠٠» وفيه بدأ حملته على التعابير المصنوعة والكلام المستعمل فى غير موضعه. وفى نفس السنة اصدر مؤلفا آخر سماه «منشور الخيبة ضد المقرمزين» وقد ادرجه فيما بعد مصلحا فى «حياة الشاطر» (١).

وفى هذه السنوات الاولى من حياته الادبية نظم كثيرا من القصائد معظمها فى الغزل وبينها حكايات وقصص شعبية واهاجى الى غير ذلك من فنون الشعر وسرعان ما تعدت شهرته الشعرية ابواب الجامعة. وفى سنة ١٥٩٨ لما نشر كاتب الجامعة لوقا رودريغيث مؤلفه «تصورات الشعر الالهى» ظهر مصدرا بقصيدة مدح من نظم كيبيدو .

---

(١) انظر «سيرة الشاطر» لفرنسيسكو كيبيدو تعريب موسى عبود ـ الفصل العاشر صفحة ١٤٢ ـ مط. المخزن ـ تطوان سنة ١٩٥٠

الفصل الثانى

كيبيدو فى بلد الوليد

فى ١٥ يناير من سنة ١٦٠١ صدر الامر الملكى بنقل البلاط من مدريد الى بلد الوليد. وكان ذلك بايعاز من الوزير الدوكى دى ليرما مقابل قدر وافر من المال رشته به العاصمة الجديدة . ولم تنفع فى ذلك توسلات المدريديين ، فانتقل الملك بحاشيته وحكومته والهيآت الادارية العليا بكاملها والتحق بها عدد غير يسير من المقيمين فى مدريد والمترددين عليها لقضاء حاجاتهم لدى الحكومة. فكادت مدريد تقفر وخفت حركتها وقل نشاطها وخيم عليها سكون لم تعهده منذ قرون . وتصدعت حزنا وأسى قلوب ابنائها ، وسارت القصائد والمنظومات الشعبية بين الناس وكلها تفيض بوصف ما خلفه هذا التدبير من الم عميق فى افئدة المدريديين .

واصابت شظاظات هذا التبديل جامعة القلعة ايضا فغادرها الكثير من الطلاب وبعض الاساتذة ومن جملتهم الدكتور لويس غرسيا استاذ كيبيدو مستبدلين بها جامعة بلد الوليد. ومن جملة الذين غادروا جامعة القلعة الى جامعة بلد الوليد الطالب

فرنسيسكو كيبيدو. ويقدر انه بلغها فى اواخر شهر مايو من سنة ١٦٠١ وامه قد توفيت فسكن فى دار وصيه اغوسطين بيانويبا زوج ابنة عمه ضونيا آنا دى بياغاس. وبقيت اختاه العازبتان فى فى مدريد الى جانب عمته مرغريتا دى اسبينوثا.

ولا يعرف شيء بالضبط عما دار من حديث بين كيبيدو وزوجة الدوكى دى ليرما ولا ما قامت به الدوكة من اجراءات لتنجيته من المأزق الذى زج بنفسه فيه بالبراز الدامى الذى اشترك به فى القلعة وجل ما وصل لدينا من ذلك هو اعترافه بانه مدين له بحياته. على ان جميل الدوكة وزوجها لم يقف عند هذا الحد. واذا بكاتبنا يوظف فى البلاط نفسه ، لكن يظهر ان هذه الوظيفة لم تكن فى بادىء الامر ذات بال ولعلها كانت من جملة وظائف الكتاب فى قصر الوزير ولم يرق الى رتبة «خادم الملك» الا بعد وضعه مؤلفه «رسالة فى الحظوة لدى الملوك» الذى اهداه الى فيليب الثالث واغدق فيه المدائح على الوزير الدوكى دى ليرما .

لم يمض على كيبيدو سوى شهرين فى بلد الوليد حتى اضطر الى الاشتراك بقضية جديدة اقامت المدينة وافعدتها . وذلك ان بعض خدم السفير الفرنسى فى تلك العاصمة هجموا على اربعة رجال وكاهن بينما كانوا يغسلون ارجلهم على ضفة النهر وقتلوهم تشفيا منهم ـ حسبما يقال ـ بسبب مداعبة قام بها معهم سابقا اشخاص آخرون. فوقع انتقامهم على من كانوا ابرياء من كل ذنب ، ولما انتشر الخبر فى المدينة استولت عليها موجة من الغضب والاستياء وتقدم رجال الامن فطوقوا السفارة

الفرنسية حيث التجأ القتلة بعد ارتكابهم الجريمة ، ولم يشأ السفير تسليمهم فأخرجوا بالعنف وكان عددهم سبعة عشر خادما فضلا عن السائس وضابط وابن اخ السفير وكان ايضا من المجرمين.

وفى ذلك اليوم قدم السفير الفرنسى احتجاجه الى الدوكى دى ليرما فأبلغه الدوكى ان القضية بين يدى العدالة ولهذه ان تجرى مجراها . وفى اليوم التالى قابل السفير الملك نفسه وابلغه انه يجب ان تحترم حصانة منزله وان يرد اليه خدمه والا فليعط جواز السفر ليعود الى بلاده . فقال له الملك ان قدم هذا التبليغ كتابة. وفى الليلة نفسها ارسل الملك رسالة الى سفيره فى باريس يأمره ان يعلم ملك فرنسا بكل ما جرى.

وكان الضابط الذى اعتقل واسمه انطونيو دى بياغاس من من اقارب ام كيبيدو . ويظهر انه بعد وقوع الحادثة اختبأ خوفا على نفسه. ولعل ضون فرنسيسكو كان عالما بمقره فأرسل اليه لاقناعه على ان يستسلم للعدالة، ومحور القضية معرفة الصفة التى أقدم بها كاتبنا على هذا الامر، ويرى المؤرخون من المحتمل انه قام بهذه المهمة بصفته موظفا فى القصر الملكى او فى قصر الوزير الاول الدوكى دى ليرما كما اشرنا الى ذلك سابقا.

وقد استغل فيما بعد الشاعر غونغورا هذه الحادثة فى اهاجيه لكيبيدو فوسمه بالخيانة مشبها اياه بيهوذا الاسخريوطى الذى سلم المسيح الى اليهود فرد عليه كيبيدو موضحا ان «تسليم رجل الى الملك نزولا عند امره لمن العدل والقانون يأمر بذلك وليس فيه عيب ولا خيانة».

اما الحادثة فانتهت بدفع الدية الى عائلات القتلى واصدر الملك عفوه عن المجرمين ـ بعد ان كانت المحكمة قد حكمت عليهم بالاعدام ـ مع الامر بنقلهم الى فرنسا ليطلق سراحهم هنالك ٠

ولما اقبل شهر سبتمبر (ايلول) التحق فرنسيسكو بجامعة بلد الوليد فى السنة الاولى من اللاهوت ، وكان يشتغل فى الوقت نفسه بقرض الشعر فى شتى المواضيع : الغزل والهجاء والنكت الشعرية ، وما لبثت منظوماته ان تربعت فى دواوين النكت والقصص الشعرية والاغانى، وسرعان ما انفتح امامه المجال لاختبار مواهبه الشعرية فى مباراة ادبية اقامتها سنة ١٦٠٢ بلدية بلد الوليد بمناسبة تطويب سان رايموندو قديسا٠

فنظم كاتبنا قصيدة (سونيطو) فى الموضوع باللغة البرتغالية ولا ندرى ان كان قد حاز الجائزة لانه لم تحفظ اللائحة التى سجلت فيها نتيجة تلك المباراة ٠ وانما وصلت الينا القصيدة التى قدمها وهى من بديع الشعر وتشهد بطول باعه فى فن القريض وبسعة اطلاعه على اللغة البرتغالية٠ ويجدر بنا ان نشير هنا الى اجادته ايضا اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية والايطالية والفرنسية والعربية، ولعله كان يجيد السريانية ايضا٠

وبعد هذا بشهر اصيب بمرض عضال اشرف فيه على الموت وعالجه خلاله الطبيب فيرناندو دى ميرابال، ويظهر انه بعد شفاء كاتبنا وقع بينه وبين الطبيب خلاف على اجرته فقدم الطبيب عليه دعوى لعميد الجامعة، ويتضح من الطلب ـ الذى لم يزل محفوظا بنصه وفصه ـ ان الطبيب لم يستلم الا قسما من اجرته، ودعى كيبيدو للجواب فأكد انه ليس مدينا له بشىء وانه دفع له اجرته

كاملة، غير انه لم تحفظ وثائق تعلمنا بكيفية انتهاء الدعوى بينهما.

فى ٢ يونيو (حزيران) من سنة ١٦٠٣ توفيت زوجة الدوكى دى ليرما، فتحركت فى كاتبنا عواطف الشكر وعرفان الجميل ونظم فى تأبينها قصيدة من اجمل ما قيل فى الرثاء. وهكذا اخذت شهرته كشاعر تمتد بحيث نرى لوبى دى بيغا وهو فى اوج الشهرة والمجد يبعث اليه من جنوب اسبانيا بقصيدة رقيقة يمدحه فيها ويتشوق الى رفقته، ويستدل منها على وجود صداقة متينة بين النابغتين، وقد جمعتهما اواصر هذه الصداقة حتى الممات دون ان يعكر صفوها اى معكر، ولا غرو ان نرى لوبى عند نشره سنة ١٦٠٤ فى اشبيلية روايته «الحاج فى وطنه» يدرج فيها قصيدة اطرائية من نظم كيبيدو وضعت دون شك سنة ١٦٠٣ كجواب على قصيدته اليه، وينوه فرنسيسكو فى قصيدته هذه بعظمة لوبى التى ترتفع فوق محاولات الحساد.

وكانت بلد الوليد ولم يكد يمض سنتان على انتقال البلاط الملكى اليها تعج حينئذ بالفنانين والشعراء والممثليـن، ويطول بنا الكلام لو اتينا نعدد اسماءهم واحدا واحدا، ولم يحجم عن شد الرحال اليها سوى لوبى دى بيغا، اما سرفانطيس فقد حل فيها حوالى سنة ١٦٠٤ وبقى فيها الى ان عاد البلاط الى مدريد، ومن جملة الذين قصدوها فى ذلك العهد الشاعر الشهير لويس دى غونغورا وان كانت مدة اقامته فيها لم تتجاوز بضعة اشهر، فقد خرج من قرطبة فى شهر ابريل (نيسان) من سنة ١٦٠٣ قاصدا القيام بمهمتين رسميتين كلفه بهما مجلس كهنة كاتدرائيتها: احداهما فى كوينكا واخرى فى بلد الوليد نفسها، وفى اواخر

شهر مايو حل ببلد الوليد وقام بالمهمة التى كلف بها، وقد اعجب بالجو الادبى الذى كان يخيم عليها، وفضلا عن ذلك كان يهمه قضاء بعض المصالح الرسمية المتعلقة بأحد أقاربه، فأقام فيها حتى منتصف شهر نوفمبر (تشرين الثانى) اى نيفا وخمسة اشهر ٠

وكان شاعرنا هذا رجلا حاد الطبع ناقما على كل شىء ، فلا يرضيه مكان ولا مقام ولا مقال، فما كادت تستقر به الحال فى المدينة حتى اخذ يرى فيها شتى العيوب وشرع يرميها بسهام اهاجيه النافذة ، فنظم فى بادىء الامر فى هجوها نشيدا وست قصائد من نوع السونيت اودعها من بذىء اللفظ وهجين الكلام الشىء الكثير وبعد ذلك موشحا فاق القصائد السابقة بالبذاءة وسدد سهامه فيه بنوع خاص الى نهر اسكيفا الذى يمر ببلد الوليد ٠

فساءت هذه الاهاجى سكان المدينة خاصة والقشتاليين عامة ٠ وما ان انتشرت نسخ الموشح اللاذع حتى تصدى لها كيبيدو ورد عليه تحت اسمه المستعار «ميغيل موسى» بقصيدة قارعة كانت فاتحة حرب سجال بين الشاعرين تراشقا فيها بقصائد اين منها نقائض الاخطل وجرير، ومن السهل ان نتصور حنق غونغورا وغضبه وهو الشاعر الفحل والهجاء اللاذع الذى لم يتجرأ حينئذ احد على التصدى له والرد عليه فى ميدان الهجاء وحتى لوبى دى بيغا نفسه بالرغم عما اصابه من سهامه الحادة لم ينبث ببنت شفة وانما كان يحاول استمالته وكسب مودته ، فمن يا ترى هو هذا الغر الذى يجرأ الآن على الرد عليه وما هو الداعى له الى اتخاذ هذا الموقف ؟ وهنا اخذ غونغورا يبحث ويحقق فى

الامر الى ان تاكد من ان ناظم القصيدة هو كيبيدو فاخذ يتحرى احواله الشخصية واطلع على مغامراته وبراعته فى اللعب ومهارته فى المقارعة بالسلاح الى غير ذلك مما وقع له وبالاستناد على ما جمعه من معلومات حول شخصه وما اضاف الى ذلك من افتراءات لا أساس لها من الصحة نظم قصيدة طويلة يكيل له فيها الشتائم والقدح فى نسبه ومتهما اياه بالخيانة والسرقة وغير ذلك مما اوحاه اليه حقده وحسده .

ما كادت قصيدة غونغورا تقع بين يدى كيبيدو حتى اخرج من كنانته سهاما جديدة، وبعد ان بحث وحقق فى نسب خصمه تبين انه من اصل يهودى، وانه من جهة اخرى قد هجا بعض كبار الشخصيات مما عرضه مرة للمثول امام المحاكم، فلم يلبث كيبيدو ان اطلق سهمه معرضا بكل ما بلغه عن امر ضون لويس واكثر ما يشير اليه فى هجائه اصله اليهودى وكان ذلك مما يعاب به فى ذلك العهد بين الاسبانيين، وبقيت قصيدته هذه دون رد من جانب غونغورا، ولكن العداوة بين الرجلين استحكمت منذئذ وظلت قائمة بينهما طول العمر، ولم تقتصر العداوة على هذا التهاجى الشخصى انما تعدته الى المنافسة الادبية، اذ اصبح كل الخصمين شيخ مدرسة ادبية مناوئة للاخرى، فغونغورا كان رئيس المدرسة المعروفة باسم Culteranismo او التصنع الثقافى وهى تمتاز بالتصنع فى التعبير والغوص وراء الكلام الغريب ، والاسهاب واستحداث الكلمات الجديدة (وخاصة من اللاتينية والايطالية) والاكثار من التلميحات الميتولوجية والتاريخية والجغرافية الغامضة زيادة فى التعقيد، بينما اصبح كيبيدو شيخ المدرسة المناوئة

التى عرفت باسم Conceptismo او التصنع الفكرى وميزتها دقة الافكار وطرافتها وتناقضها والتلاعب بالكلام فى كثير من التصنع احيانا، وقد اسفر تصدى كيبيدو للمدرسة الغونغورية فى نهاية الامر عن انحلالها ودرسها ولم يجد نفعا ما قام به بعض المتاخرين من محاولات لاحيائها.

وهكذا قضى ضون فرنسيسكو سنة ١٦٠٣ بكاملها منصرفا الى النشاط الادبى المثمر فانتج فضلا عن القصيدة التى مدح بها لوبى دى بيغا والتى سبقت الاشارة اليها وعن اهاجى غونغورا نيفا وعشرين قصيدة اخرى ادرجها كل من بدرو اسبينوثا وميغيل دى مدريغال فى مجموعتيهما الشعريتين، ونجح فى امتحان السنة الثانية من دراسة اللاهوت وتسجل فى السنة الثالثة، وواصل انتاجه الشعرى فى السنة التالية وقد حفظت له عدة قصائد ترجع الى ذلك التاريخ .

لكن مناخ بلدْ الوليد لم يوافق مزاجه فعاوده المرض الذى كان ألم به سنة ١٦٠٢ ولم تكن الاحتفالات الشائقة والمهرجانات الفخمة التى أقيمت فى صيف سنة ١٦٠٤ بكافية لاقصاء الالم الذى كان يحرق بدنه، فاضطر الى ملازمة الفراش وبينما هو على هذه الحالة وصله من مدريد نعى صديقه الوفى والاديب الكبير ضون برناردينو مندوثا الاعمى الذى كان فيما مضى سفيرا لدولته فى انكلترا وفرنسا . وقد كان مندوثا يحض كيبيدو على التصدى للدفاع عن هوميروس ضد هجمات سكالخيرو والانتقادية وهى فكرة عرضت له من مطالعته تعليقات العالم البلجيكى خوستو ليبسيو على مؤلف «فيلايو» .

وهنا عرضت لكيبيدو طبعا فكرة الاتصال بخوستو ليبسيو، وكان اذاك يطالع مؤلفه «فستا» عن الآلهة والعذارى القائمات على اطعام النار المقدسة في معبدها ، وقد اعجب بالكتاب ـ وهو باللاتينية ـ الى حد انه عزم على تأليف كتاب في الموضوع نفسه لكن حالته الجسمية كانت سيئة، بحيث لم يتمكن لايام خلت ان ينظم مرثية لصديقه برناردو مندوثا الا بعد جهد جهيد، لكنه في ٤ سبتمبر (ايلول) استجمع قواه واملى وهو في الفراش رسالة باللاتينية الى العالم البلجيكي، وبعد ان شبهه فيها بالشمس وابى الهول قال انه منصرف الى قراءة كتابه وعازم على الكتابة حول الموضوع، ثم يضيف قائلا: «ما اكتبه انما ساكتبه بيد مرتعشة وذهن واجف وسأبعث بمؤلفي اليك لتصححه بعطف ورعاية » ومن هذه الرسالة يظهر مدى احترامه وتقديره لذلك العالم الفذ.

استلم العالم البلجيكي رسالة الاديب الاسباني الشاب فاعجب برونقها البديع وظرافتها وروح مؤلفها الخفيفة فلم يلبث ان تناول القلم وسطر له جوابا باللاتينية ايضا من مدينة لوفين في ١٠ اكتوبر (تشرين الاول) من سنة ١٦٠٤ نفسها وفي الجواب يعلمه باصداره طبعة جديدة مصححة من مؤلفه «دي فستا» وباعداده بضعة مؤلفات فلسفية عن سينيكا ومذهب زينون وغير ذلك، ولما بلغت كيبيدو الرسالة كانت وطأة المرض قد خفت والخطر قد ابتعد فكتب الى ليبسيو في ٢٢ نوفمبر رسالة جديدة آية في البلاغة مما جاء فيها « كنت على ابواب الموت لكن رسالتك شفتني... اني اسوق امامي كالشاعر قطيع الامراض

الشاحب، لكن فى الكلام قوة خفية صادرة عن السحر بل عن علم حضرتك ولذلك اطالع مؤلفاتك، ارجوك ان تبعث الى بنسخة من طبعة كتابك «دى فستا» الجديدة، أجل! انه لم يكن ليتاح لاحد غير ليبسيو الدخول الى هذا المعبد ، ان الهة النار كانت لفى حاجة الى عبقرية منقذة، فلتواصل حضرتك التاليف دون انقطاع لان مؤلفاتك تضمن لك نصبا ادوم من البرونز...

«ان جيلنا المحزن بالحروب لهو حقا جيل الحديد لكنه بفضل مؤلفاتك لا يحسد الجيل الذهبى على شىء... لقد ترجم ضون برناردينو دى مندوثا الى لغتنا كتابك «السياسة» وقد لاقى هذا الرجل الصالح وجه ربه منذ قليل، كما انى قررت نزولا عند رغبته ان اكتب بالاسبانية دفاعا عن هوميروس ضد افتراءات سكاليخيرو وهى فكرة عرضت له من مطالعته تعليقاتك على فيلايو »

وهكذا توالت المراسلات بين الفيلسوف العظيم والاديب الشاب حتى وفاة الاول فى سنة ١٦٠٦ وما حفظ منها يدل على التفاهم التام بين عقليهما العظيمين رغم صغر سن كيبيدو، وعلى متانة الصداقة التى جمعت بينهما بالرغم من بعد الشقة .

قبل ان تنتهى سنة ١٦٠٤ كان صوت كيبيدو فى انتخاب اساتذة الجامعة (١) يحسب له الف حساب، ففى ٦ مايو من تلك السنة شارك فى انتخاب استاذ الفلسفة وفى ٣ غشت فى

---

(١) كانت العادة فى ذلك العهد ان ينتخب الطلاب انفسهم أساتذة الجامعة.

انتخاب استاذ المنطق، وبعد ذلك بأيام قليلة الم به ذلك المرض العضال الذى اشرنا اليه سابقا، ولكنه لما رأى انه لم يبل كل الابلال شد الرحال الى مدريد فى شهر ديسمبر (كانون الاول) فحل الى جانب عمته وأختيه.

عاد الى مدريد فوجدها مقفرة موحشة لا حياة فيها ولا حركة، ولا بسط ولا انشراح، ولا حفلات ولا مهرجانات، خاوية المنتزهات خالية الساحات، يخيم الفقر فوق سمائها ويسبح الجوع فى شوارعها، فلم يملك نفسه عن التاوه وقريحته الخصبة عن الفيضان فجاء بقصائد تقطر حزنا واسى يصف فيها مشاهداته فى مدريد .

فى اوائل سنة ١٦٠٥ رجع الى بلد الوليد وعاد الى الاشتراك فى انتخاب اساتذة الجامعة، ويهمنا من هذه الانتخابات واحد بنوع خاص وهو انتخاب استاذ الفلسفة الذى وقع فى ابريل من تلك السنة ، وذلك لان ملف ذلك الانتخاب حفظ لنا وصفا دقيقا لكاتبنا حيث جاء فيه: «ضون فرنسيسكو دى كيبيدو اصله من مدريد التابعة لا برشية طليطلة، اشقر اللحية واعرج» فمن هذه الوثيقة يعلم اذا انه كان اشقر اللحية واعرج، اما عرجه فلا خلاف فى صحته، اما اشقرار لحيته فهو موضوع اخذ ورد بين المؤرخين لان كيبيدو نفسه قد اعترف «بأنه اسود الشعر والحظ» والرسوم التى حفظت له من ذلك العهد تظهره اسود الشعر والشاربين، وقد استخرج المؤرخون المعاصرون من مقابلة هذه الوثائق والمعلومات بعضها ببعض انه كان اسود شعر الرأس اشقر اللحية .

فى ١٦ من شهر ابريل (نيسان) ١٦٠٥ توفيت فى مدريد شقيقته ماريا مخلفة ارثها له ولاختها مرغريتا، وبعد ايام وصله نعيها فنغص عليه العيش فى تلك الفترة التى كانت بلد الوليد تمرح خلالها فى ميدان الافراح والحفلات بمناسبة مولد ولى العهد ضون فيليب الذى تربع فيما بعد على عرش اسبانيا تحت اسم فيليب الرابع، فقد بدأت الحفلات فى ١٨ ابريل وتوالت حتى اواخر يوليو، وازدادت رونقا فى شهر يونيو والنصف الاول من يوليو بزيارة الاميرال الانكليزى اللورد شارل هوارد، ولم يتمتع ضون فرنسيسكو الا بمشاهدة قسم ضئيل منها قبل ان يبلغه نعى اخته. وكذلك يجب ان يقرن بهذه الذكرى المؤلمة ظهور «القسم الاول من ازهار شعراء اسبانيا المشاهير» فى اواسط شهر ابريل المذكور، وهذه المجموعة رتبها الشاعر بدرو اسبينوثا وخص كيبيدو بمقام بارز فيها اذ ادرج له ثمانى عشرة قصيدة من مختلف انواع الشعر، وخرج الكتاب وفيه يتبوأ كاتبنا مركزا رفيعا الى جانب كبار شعراء عصره امثال ضون خوان دى ارغيخو، وگاموانس، وفراى لويس دى ليون، ولويس باراهونادى صوطو، ولوبى دى بيغا، وبيثنطى اسبينال وغيرهم. وكانت اواصر الصداقة قد استحكمت بين كيبيدو واسبينوثا الذى قدم بلد الوليد فى اواسط سنة ١٦٠٣

وكانت توحد بينهما السن والميول، لكنه كانت تنقص اسبينوثا عبقرية كيبيدو ، ولم يجد لهذا الحسد الى قلبه منفذا ، بل بالعكس فانه كان يعجب بعبقرية صديقه ويقدرها حق قدرها. وقد قابل كيبيدو هذا النبل بالمثل فدفع اليه فى بلد الوليد

محفظة قصائده ليختار منها على هواه ما احبه لمجموعته، وقد ظلت الصداقة بينهما وثيقة العرى الى آخر العمر .

وفى سنة ١٦٠٥ اظهر الطالب ميغيل دى مدريغال مجموعة شعرية اسماها «القسم الثانى من الاناشيد العامة وازهار الشعر» وقد ضمنها عددا وافرا من منظومات كاتبنا .

لم يمض على كيبيدو فى حداده سوى ثلاثة او اربعة اشهر حتى استعاد مرحه فاذا بنا نراه متصلا بالمركيز دى باركاروطا وبضعة شبان آخرين من النبلاء فينصرفون جميعا الى اللهو ومعاقرة الخمرة ومغازلة النساء وتنظيم حلقات الرقص والغناء ، وكان المركيز دى باركاروطا يشبه كيبيدو فى الظرافة فما حل فى مجلس الا شغله بنكته، وينسب اليهما كثير من النكت والاجوبة الظريفة التى حليت بها مجالس اللهو والانس، وفى سنة ١٦٠٧ قدم اليه كيبيدو مؤلفه «مامور العدالة المخبوط» وفى سنة ١٦٠٨ قدم اليه مؤلفه الشهير «حلم الجحيم».

وعند ما حل شهر اكتوبر من سنة ١٦٠٥ كان كيبيدو قد فاز فى امتحان السنة الثالثة من دراسة اللاهوت فالتحق بالسنة الرابعة، وكانت مجموعته الشعرية قد اصبحت ضخمة، فزيادة عما نشر له فى المجموعتين السابقتين نظم قصائد عديدة منها ما نشر سنة ١٦٤٨ ومنها سنة ١٣٠٧ ومنها ما بقى مخطوطا الى ان نفض عنها غبار الزمن ونشرها سنة ١٩٣٢ الكاتب المعاصر لويس استرانا مارين فى «مؤلفات كيبيدو الكاملة».

ولما رجع البلاط الملكى الى مدريد فى مطلع سنة ١٦٠٦ وخلت بلد الوليد من رجال الحكم والحاشية الملكية وذلك الجيش

الجرار من المرتزقة الذين يحومون حول البلاط فى الحل والترحال اخذ الشعراء يكيلون لها الاهاجى ولم يكن كيبيدو ليقف فى المؤخرة بل سدد اليها سهام هجوه اللاذع فى قصيدة طويلة كلها قدح وتعريض، لكنه لم يرحل عنها حتى اواسط شهر يونيو حين غادرها وصيه اغوسطين فيانويفا. فأمكنه اذا ان ينهى السنة الرابعة من دراسة اللاهوت.

الفصل الثالث

كيبيدو فى مدريد ـ نشاطه الادبى قبل سفره الى ايطاليا

لم يمض على كيبيدو فى مدريد سوى ثلاثة اشهر حتى بلغ سن الرشد وهى اذاك الخامسة والعشرون، ففى سبتمر من سنة ١٦٠٦ خرج من الحضانة واستلم من وصيه جميع ممتلكاته وحسابا مفصلا عن ادارته لها طيلة مدة الحضانة. وفى هذه الآونة تلقى الدرجات الكهنوتية الصغرى. لكنه وقف عند هذا الحد بعد ان نال شهادة اللاهوت دون ان نعلم بالضبط ان كان ذلك فى جامعة طليطلة او القلعة. غير ان كيبيدو نفسه يقول فى «الرد» على الاب خوان دى بينيدا (٨ اغسطس من سنة ١٦٢٦) «لقد درست اللاهوت والفلسفة فى جامعة القلعة ونلت الاجازة فيهما، وتتلمذت للدكتور مونتيسينوس والدكتور طينا والاب لورقة» وهؤلاء الاساتذة الثلاثة هم من اكبر لاهويتى ذلك العهد وقد خلفوا مؤلفات نفيسة وابحاثا قيمة وتتلمذ لهم عدد كبير ممن اصبحوا فيما بعد من ائمة اللاهوت والفلسفة ، فلا غرو ان يفتخر كيبيدو بالسماع منهم والقراءة عليهم .

وقد كان حتاما عليه ان يبرر المدائح التى اغدقها عليه الفيلسوف البلجيكى ليبسيو. ولذا قبل ان يرجع الى مدريد كان قد خطا خطوة بعيدة فى مؤلفين علميين احدهما بالاسبانية عن «العذارى المكلفات بالنار المقدسة» وهو الذى وعد ليبسيو بأن يبعث به اليه ليصححه والآخر باللاتينية وهو «الدفاع عن هوميروس» اما عن الكتاب الاول فلا يعرف شىء الآن. ولعل موت العالم البلجيكى الذى حدث فى ٢٣ مارس من سنة ١٦٠٦ عطله. والثانى يعرف انه اتمه لكنه ضاع فيما بعد، وقد اشار اليه كيبيدو نفسه فى مؤلفه «اسبانيا المصونة» (١٦٠٩) وفى «حلم الجحيم» (١٦٠٨) وكذلك اشار اليه الكاتب خوان بيريث دى مونطيلبان فى مؤلفه «للجميع» الصادر سنة ١٦٣٢

وفى سنة ١٦٠٦ نفسها فرغ كيبيدو من اول «احلامه» وعنوانه «حلم يوم الحشر» وقدمه الى الكوندى دى ليموس ـ وهو الذى قدم اليه سرفانطيس القسم الثانى من ضون كيخوطى والمؤلفات التى وضعها فى آخر عمره ـ وكانت تربطه بكاتبنا صداقة فترت بعض الشىء فيما بعد، وهذا «الحلم» اول حلقة من سلسلة اطلق عليها المؤلف اسم «الاحلام» واكسبته شهرة بعيدة المدى وهى تعد من احسن مؤلفاته ان لم نقل احسنها على الاطلاق ومن فرائد الادب الاسبانى ، وسنتكلم عنها مطولا فى القسم الثانى من هذا الكتاب كما اننا نؤمل نقلها الى العربية فى المستقبل القريب ان شاء الله .

ولعل الصداقة بينه وبين الكوندى دى ليموس حدت به الى القيام بأولى مغامراته السياسية فوضع مؤلفه «رسالة فى

الحظوة لدى الامراء، وغرضه فى باطن الامر مدح الحظى ضون فرنسيسكو دى ساندوبال اى روخاس والتقرب منه املا فى الحصول على وظيفة ما فى البلاط الملكى حيث دخلت اخته مرغريتا فى حاشية الملكة .

وكانت تتناوب وقته المؤلفات الجدية كالتى اشرنا اليها والمؤلفات المرحة والمجونية احيانا من نثر وشعر، ونخص بالذكر منها «رسائل فارس الكلابة» وهى تدور حول اساليب حفظ المال من السائلين وتذكرنا ببعض رسائل البخلاء فى العربية، وقد تداولتها الايدى مخطوطة حتى طبعها فى سنة ١٦٢١ و «براءة اللاغطات» الخ... وقد يعجب المرء احيانا من صدور مؤلفات بعضها من بعض على طرفى نقيض من قلم كاتب واحد، لكن العبقرية وحدها هى التى تقوى على جمع النقيضين بيدها الجبارة، ولنا فى ادبنا العربى فى الجاحظ وابن حزم خير مثال على هذا الامر، ونقد كان كيبيدو يتردد على طبقة اللهاة فى مجالس الضحك واللهو والعبث فيقرأ عليهم مؤلفاته المرحة ويتعرف الى احوالهم النفسية والاجتماعية وحيلهم وعيوبهم واساليبهم وينقلها الى كتبه نقل الشاهد العيان كما نتبين ذلك فى مؤلفه «الحياة فى العاصمة والمهن المسلية فيها» وفى الوقت نفسه يجالس كبار العلماء والادباء والشعراء فيأخذ معهم باطراف الاحاديث الرفيعة التى تنبى بعلو الكعب فى ميدان الادب والمعرفة والشعر، ومن بين هذه الطبقة الرفيعة نخص بالذكر صديقه الحميم ضون لويس كاريو سوطومايور فقد ولد هذا سنة ١٥٨٣ وكان من عائلة رفيعة، ولاحق الدراسة العالية ست سنوات فى جامعة سلمنكة ثم انصرف الى الملاحة

واصبح فى سنة ١٦٠٦ وهو لما يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ذا رتبة عالية فى البحرية الملكية، وقد مدحه كيبيدو عند ترقيته فى تلك السنة بقصيدة عصماء كلها دعاء الى البحر وثناء على صديقه، وكان لويس كاريو من ائمة مدرسة «التصنع الفكرى» Conceptismo وقد كتب رسالة فى الموضوع عنوانها «كتاب المعرفة الشعرية او سهام ربات الشعر الموجهة الى الجهلة المطرودين من حماية الوهيتها»، والغرض منه تبرير الترفع فى الشعر عن الكلام المبتذل والافكار العادية والدعوة الى استعمال الكلام الانيق وان عسر فهمه على عامة الناس لان الشعر فى نظره لا ينظم للعامة بل للخاصة فلا حرج عليه ان لم تفهمه العامة.

وتضاربت الآراء فى الكتاب، لكن كيبيدو لم ير فيه ـ حسب تعبير احد المؤرخين ـ الا اهتماما بالمبنى، وذلك فى نظره غير كاف والحالة العامة تدعو الى الاهتمام بالمعنى، بالاصلاح الخلقى والاجتماعى لان المجتمع كان فى طريق الانحلال والتدهور، فلا سبيل الى الركون الى الدعة والاستسلام، فجرد قلمه ليواصل كتابه «الاحلام» فوضع فى اوائل سنة ١٦٠٧ «مامور العدالة المخبوط» وفيه حمل بنوع خاص على الوزراء والعظماء الذين يغتنمون فرصة احتلالهم المناصب العالية وقربهم الى الملك لاشباع شهواتهم ومطامعهم وظلم العباد بما لا يرضاه الضمير والعدالة، وقدم مؤلفه هذا الى صديقه المذكور سابقا المركيز دى فيانويفا دل فريسنو اى باركاروطا، فسر المركيز سرورا كبيرا بهذه البادرة من جانب صديقه الكاتب وفى اواخر تلك السنة او اوائل التالية استدعاه لقضاء مدة فى داره فى بلده فيانويفا دل فريسنو الواقعة فى

مقاطعة بطليوس، فلبى الدعوة، وفى دار صديقه هذه كتب «حلم الجحيم» الذى يعد من اروع ما انتجه الفكر البشرى من الآثار الادبية، وقد ختمه بهذه العبارة: «فرغت من هذه الرسالة فى بلدة فريسنو اواخر ابريل سنة ١٦٠٨ وانا فى الثامنة والعشرين من العمر» ثم بعث به الى صديق فى سرقسطة، وبعد ذلك امضى كيبيدو ما بقى من سنة ١٦٠٨ وثلاثة ارباع سنة ١٦٠٩ منصرفا الى نشاط ادبى كبير، فنقل الى الاسبانية «مراثى ارميا» وكتاب «كومونيطوريو» المنسوب الى فوصيليدس (١) وترجم ايضا ديوان الشاعر اليونانى انار كريون (٢) Anacreón وعلق عليه تعليقا وافيا ووضع مؤلفه «الدفاع عن اسبانيا» ولم يتمه ، والمؤلفات الثلاثة الاولى تدل على طول باعه فى ادب الاقدمين وعلم اللغة، والاخير منها ينم عن روحه الوطنية الفياضة، لكنه لم يطبع واحد

---

(١) Focilides شاعر يونانى اصله من مدينة ميليطو عاش فى النصف الاول من القرن السادس قبل المسيح ولم يبق من شعره الا قدر يسير.

(٢) Anacreón شاعر يونانى شهير ولد فى Teos فى النصف الثانى من القرن السادس قبل المسيح ومات فى ابديرا Abdere سنة ٤٧٨. وقد امضى حياته متنقلا بين بلاط «بوليكراط» عاهل مدينة «ساموس» الغاشم، واثينا وتيوس. ولم يصلنا من مؤلفاته الحقيقية الا نتف قليلة. وقد تغنى انا كريون بالخمر والحب. وكثيرا ما يشار اليه باسم «منشد تيوس» و «شيخ تيوس». وقد نسب اليه كثير من الشعر الخمرى والغزلى الذى هو دون شك من نظم شعراء عصر الانحطاط فى اليونان.

منها اذاك والاثنان الاخيران لم يطبعا الا بعد وفاته، ويشير فى ترجمته لديوان «اناكريون» الى مؤلفين آخرين له من ذلك العهد احدهما عنوانه «اوديوم Odium »، باللاتينية، والثانى ترجمة لقصة «غرام لوثيبى وكليطوفونطى» للكاتب البيزنطينى أكيليس ستاسيو الخاندرينو Aquiles Stasio Alejandrino لكن هذين المؤلفين عبثت بهما يد الضياع ولم يبق لهما من اثر.

اما ترجمة الكتاب المنسوب الى فوصيليديس فقد عنونها اولا بالعنوان الآتى «رسالة فى حياة وعهد فوصيليديس»، وقدمها الى الدوكى دى اوصونا فى ١٢ ابريل من سنة ١٦٠٩ لكنه لم يطبعها حتى سنة ١٦٣٥ مدرجة فى مؤلف واسع يشمل ترجمات احرى وتعليقات على مذهب «أبيقور» Epicurio وكذلك ادرج ترجمة «مراثى ارميا» فى مجموعة اخرى طبعها سنة ١٦١٣ وقدمها الى الكردينال رئيس اساقفة طليطلة، اما تقدمة «الاناكريون القشتالى» فهى ايضا موجهة الى الدوكى دى اوصونا ومؤرخة فى مدريد بتاريخ فاتح ابريل من سنة ١٦٠٩ اى قبل قبل تقدمة كتاب «فوصيليديس» باثنى عشر يوما ، ويستدل من هاتين التقدمتين ان الصداقة كانت قد استحكمت بين كاتبنا والدوكى دى اوصونا ـ واسمه ضون بدرو تياث خيرون ـ من قبل سنة ١٦٠٩

اما كيف تعارف كيبيدو والدوكى وباية مناسبة فذلك ما لا نعلمه بالضبط، وانما يرجح المؤرخون انهما تعارفا فى احدى الحلقات الادبية التى فتحت عهدئذ فى مدريد، واول حلقة اشترك بها كيبيدو على ما يعلمنا به مؤرخه «تارسيا» هى التى كانت تابعة لمدرسة الآباء اليسوعيين، ولم تمض على كيبيدو مدة طويلة حتى

اصبح يشار اليه فيها بالكياسة وسرعة الجواب وحدة الذهن، ومن المحتمل ان يكون الدوكى دى اوصونا من جملة الذين كانوا يؤمونها ويحضرون جلساتها ٠

وفى اواخر سنة ١٦٠٨ او اوائل ١٦٠٩ تاسست حلقة جديدة تحت رعاية ضون بدرو مانصو رئيس مجلس قشتالة وبطريرك الهند، وكان كيبيدو والدوكى من جملة المترددين عليها٠ وفى هذه الحلقات كانت الاحاديث تدور حول الادب والفن والشعر والعلم فيحتدم الجدال وتشتد المناقشات وربما اسفرت احيانا عن منازعات تنتهى بالمبارزة ، ومن جملة ما اثار عاصفة جديدة من الجدال الكتاب الذى نشره ضون لويس باتشيكو دى ناربايز، استاذ فن المبارزة ، تحت عنوان «مائة نتيجة او طريقة لاحكام فن المبارزة مبنية على اساس علمى» سنة ١٦٠٨، وكان مؤلفه قد نشر سنة ١٦٠٠ كتابا آخر تحت عنوان «كتاب عظمة السيف» واليه اشار كيبيدو متهكما بطرف خفى فى «حلم يوم الحشر» ومن بعد بكل صراحة فى كتابه «حياة الشاطر ضون بابلوس» وكلا الكتابين يرمى الى اثبات نظرية جديدة فى فن المبارزة تدور حول تطبيق القواعد الهندسية على هذا الفن٠

وكانت المناقشات قد بدأت منذ ظهور الكتاب الاول، فجاء الثانى ضغثا على ابالة ، ففى احدى جلسات الحلقة تناول الحاضرون الموضوع فتصدى كيبيدو لباتشيكو نارباز متهكما على «نتائجه» وبنوع خاص على واحدة منها، فأصر باتشيكو على رأيه واحتدم الجدال ، واخيرا دعا كيبيدو خصمه الى تجربة عملية فتردد باتشيكو اولا لكنه اضطر الى القبول امام الحاح الحاضرين

وفى الصدمة الاولى فاجأه كيبيدو بضربة على رأسه رمى بها قبعته، فانسحب باتشيكو خائبا خجلا، ومنذ تلك الحادثة استحكمت العداوة بينهما. .

ففى احدى هذه الحلقات اذن تعارف كيبيدو والدوكى دى اوصونا وما ان تعارفا حتى استحكمت بينهما الصداقة المتينة، «فان النفوذ الادبى الذى كان يتمتع به كاتبنا ـ على حد تعبير احد المؤرخين ـ اخذ بلب ذلك الرجل العظيم، اول فواد جيله الذى لم يكن منه من صغير الا قامته» وكما يقول مؤرخ آخر «تلاقت تانك النفسان اللتان كانتا بحاجة ماسة الواحدة الى الاخرى واللتان لم تلبث قواهما المتحدة ان اصبحت سيلا جارفا».

ويجدر بنا هنا ان نتكلم قليلا عن نشأة هذا الرجل العظيم الذى تحتل علاقاته بكاتبنا القسم الاكبر او الاهم من حياته .

ولد ضون بدرو تياث خيرون فى بلدة اوصونا فى ١٧ ديسمبر من سنة ١٥٧٤ وهو ابن ضون خوان تياث خيرون اول من حمل لقب «ماركيس دى بنيا فيال» منذ سنة ١٥٦٨ وثانى من حمل لقب الدوكى دى اوصونا منذ سنة ١٥٩٠ وانتقل منذ صغره بصحبة والده الى نابولى حيث كان جده نائبا للملك ومنذ صغره عرف بقوة الحافظة وحدة الذهن وسرعة الخاطر، وسرعان ما تألفت القصص حول فتوته وذكائه، وبعد عودته الى اسبانيا درس فى جامعة سلمنكة ثم فى مدريد، فى العهد الملكى، لكنه كان يميل خاصة الى الادب، وقد نظم فى هذا العهد عدة قصائد بالرغم عن ارادة جده الذى كان يريد تدريبه على حياة الرياضة والصيد لتتربى فيه ملكة الفروسية، لكنه لم يخيب ظن جده بل اتقن

الفروسية ايضا حتى برع فيها، غير ان طبعه الحاد وخلقه الجموح دفعا به منذ ان صار يافعا الى ميدان المغامرات وفى ١٤ سبتمبر من سنة ١٥٩٠ توفى جده ولم يكن والده ذا عزيمة كافية لردعه عن السير فى طريق المعاصى، وهكذا اصبح اينما حل يجتمع بالاوباش وسفاكى الدماء والدجالين والشطار، وكان يتقن نقل السيف فما يكاد يسمع باحد المتبجحين بقواهم الا قصده وافحمه بحد السيف، وقد ارتكب من الفواحش والمغامرات فى صباه ما لم يسبقه اليه احد وتناقلتها الالسن واختلطت الحقيقة بالاسطورة مما حدا بالروائى كريسطوبال دى مونروى سلفا الى وضع رواية مسرحية عنوانها «فتوة الدوكى دى اوصونا».

وفى سنة ١٥٩٢ اشترك بفضيحة كبيرة فى اشبيلية ختمت بصورة دامية ثم فر الى فرنسا، وفى عاصمتها شارك ايضا بعدد كبير من المغامرات والفواحش والاصطدامات، ثم عاد الى اسبانيا سنة ١٥٩٤ فتزوج دون ان يكون زواجه رادعا له عن مواصلة هذه الحياة المضطربة القلقة، وفى ٢٥ نوفمبر من تلك السنة توفى والده فاصبح يحمل لقب «الدوكى دى اوصونا»، وبعد ذلك بثمانية ايام بعث برسالة الى الملك فيليب الثانى يضع فيها نفسه تحت حمايته ويعبر عن رغبته فى الاقتداء بأسلافه، لكن حيث انه لم ينقطع عن حياته السابقة فقد صدر امر بنفيه من اشبيلية واقليمها غير انه خالف امر النفى فقبض عليه وزج فى قلعة ثوريتا، فخرج منها واختبأ فى قرية كاثايا، وفى سنة ١٦٠٠ استدعى الى العاصمة، فخطرت له حينئذ فكرة الذهاب الى فلانديس للالتحاق بالجيش الاسبانى المرابط فيها، لكنه كرر فواحشه فى مدريد،

فقبض عليه ثانية وارسل الى احد الامكنة التابعة لولاية خاله فى قشتالة لكنه فر من جديد وتوجه الى فلانديس مارا بفرنسا حيث حظى بمقابلة ملكها بعد ان اوشك ان يصطدم ببعض الفرنسيين فى باريس، وقد سيره ملك فرنسا الى فلانديس مكرما محترما.

بلغ فلانديس فانخرط فى الجيش كجندى عادى وأظهر شجاعة كبيرة وبراعة نادرة، وما لبث ان رقى مكافأة له على اعماله العظيمة، وبلغت اخباره الملك فسر بها وتناسى ما كان قد صدر عنه من الطيش فى السنوات السابقة .

وفى مارس من سنة ١٦٠٨ عاد الى اسبانيا وتوجه الى بلدة ليرما لمقابلة الملك فأنعم عليه فيليب الثالث بألقاب وأوسمة رفيعة ووعده بتعيينه نائبا له فى صقلية وفى شهر اكتوبر حل فى مدريد وقد تبدل خلقا وخلقا، وانصرف عن معاشرة الاوباش الى الطبقة العالية ورجال الفكر، وأخذ يتردد على حلقات الادب، وهذا كان من المؤكد فى العاصمة فى اوائل سنة ١٦٠٩ انه سيعين نائبا للملك فى صقلية، ولهذا يستنتج من عبارة «خادم سعادتكم» التى جاءت فى تقدمة كيبيدو له كتابه «الاناكريون الاسبانى» انه كان يرغب فى الانقطاع الى خدمة الدوكى دى اوصونا والالتجاء الى كنفه.

وبالرغم من ميله الى اللهو والمرح كانت الروح الدينية متأصلة فى اعماق نفسه، فلذا نراه فى اوائل شهر اغسطس من سنة ١٦٠٩ ينضم الى اخويه عبيد القرباس الاقدس التى تأسست سنة ١٦٠٨ وضمت بين اعضائها عظام رجال الدولة وعددا كبيرا

من مشاهير الكتاب نخص بالذكر منهم سرفانطيس ولوبى دى بيغا وسالاس باربادیو وبيثنطى اسبينال وغيرهم .

* * *

فى اوائل شهر ابريل من سنة ١٦٠٩ وصل الى مدريد الشاعر ضون لويس غونغورا قادما من قرطبة موفدا من جانب مجمع كهنة كاتدرائيتها فى مهمة رسمية تضطره الى زيارة بعض المدن والقرى المجاورة لمدريد، وبعد ان قضى المهمة الرسمية عاد الى العاصمة فى اواخر شهر يونيو وبعث الى قرطبة بنتيجة تحقيقاته، واذاك اجابه المجمع بأن يواصل التحقيق فى مدريد نفسها، فقبل غونغورا المهمة فرحا لانها تتيح له ان يقضى مدة فى العاصمة التى كانت نفسه تتوق الى العيش فيها، ويتصل بأصحابه من شعراء وكتاب ويعرض منتوجاته الادبيـة الجديدة ويفتش عن سبيل يهيىء له الاستقرار فيها، واتصل فى جملة من اتصل بهم بالكوندى ليموس الذى كان قد عين منذ مدة قريبة نائبا للملك فى نابولى، وكان يبحث آنئذ عن زمرة من الادباء يستصحبهم الى بلاطه الجديد، لكن غونغورا لم يوفق فى ان يضم الى تلك الزمرة كما خابت فيها ايضا آمال امير الادب الاسبانى سرفانطيس الذى كانت تحدثه نفسه بالعودة الى نابولى ، فما ان خاب ظن غونغورا حتى عمد الـى سهام هجائه السامة فارسلها صوب نهر مانسناريس وقنطرة شقوبية وكل ما عـن له هجاؤه فى العاصمة، وقد اصاب بأحد سهامه هذه الروائى الكبير لوبى دى بيغا وهو يكاد يفرغ من نشر مسرحيته «القدس المفتوحة» وأطلق سهما آخر على عدوه اللدود كيبيـدو وقد سمع بما كان

يغدق من المدائح على مؤلفه «أنا كريون القشتالى» فى مجالس الادب، لكن كيبيدو كان له بالمرصاد وهو ذو القريحة الخصبة واللسان الحاد والقلم السيال لا يسكت على هجاء املاه الحسد فاستل قلمه ورد على غونغورا بقصيدة طويلة كان لخصمه فيها من الالقاب والنعوت والاوصاف ما لا يترك له رغبة فى العودة الى فتح باب الهجاء، لكن غونغورا لم يستسلم وعاود الكرة فرد عنيه كيبيدو ثانية بقصيدة مشهورة استهلها بقوله :

«سأمسح أشعارى بلحم الخنزير لئلا تعضها يا غنيغرا»

مشيرا بهذا الى اصله اليهودى، وكانت هذه اعظم اهانة يمكن ان توجه الى اسبانى فى ذلك العهد فما قولك به لو كان فضلا عن ذلك كاهنا .

والى جانب هذه المساجلات الادبية المسلية كان كيبيدو يواصل عمله الجدى فى مؤلفات قيمة، فقبل ان تنصرم سنة ١٦٠٩ فرغ من وضع كتابه «الدفاع عن اسبانيا والاوقات الحاضرة من افتراءات الكذبة والمغترين» واهداه الى الملك فى ٢٠ سبتمبر من تلك السنة، ومطلع التقدمة يوضح قصده من وضعه، فقد جاء فيه : «لما عييت من رؤية آلام اسبانيا التى تركت دون عقوبة هذا القدر العظيم من افتراءات الاجانب ورأيت ان اعداءنا الذين لا تجول فى وجوههم نقطة من ماء الحياء يعدون خرصا واقتناعا من جانبنا ما نصفح عنه كرما وتواضعا تجرأت على الجواب عن وطنى وزمانى» فالكتاب اذا ذو صبغة وطنية علمية يدل على تأجج نار الوطنية فى صدر المؤلف وسعة اطلاعه فى جميع ابواب العلم والمعرفة.

وفى اوائل هذه السنة نفسها بدأت الدعوى التى استمرت قائمة نيفا وعشرين سنة بينه وبين سكان قرية «طوريس دى خوان آباد». وخلاصة هذه القصة هى ان تلك القرية الواقعة فى مقاطعة «سيوداد ريال» وعدد سكانها اليوم يقارب ٣٥٠٠ نسمة كانت تابعة لحكم بلدة اخرى، فأراد سكانها فى اواسط القرن السادس عشر ان ينفصلوا عن ذلك الحكم وبعد معاملات واجراءات عديدة لا محل لذكرها الآن انتهى الامر بأن اشترت أم كيبيدو سنة ١٥٩٨ حقوق المتمولين الذين كانوا قد اسلفوا سكان القرية المال الكافى الذى اضطروا لدفعه مقابل انفصالهم عن سيادة البلدة الاخرى، ولما توفيت والدة كيبيدو انتقلت حقوقها اليه والى اخته مرغريتا، لكنهما لم يتمكنا من استيفاء شىء البتة من دينهما، فاضطر كيبيدو فى سنة ١٦٠٩ كما قلنا الى فتح دعوى على سكان القرية لتحصيل دينه، وبعد اخذ ورد دام اثنتى عشرة سنة طلب كيبيدو سنة ١٦٢١ من «مجلس قشتالة الملكى» ان يباع بالمزاد العلنى حق السيادة على القرية ليقبض دينه، ودفع بأحد اخصائه المسمى ضون الونصو مسيا دى ليفا ليشترك بالمزايدة على حسابه. فرست هذه عليه ثم حولها الى كيبيدو فأصبح منذئذ يعرف بلقب «سيد بلدة طورى دى خوان أباد»، لكن الاهالى ظلوا يناوئونه، الى ان تصالح معهم سنة ١٦٣١ على ان يدفعوا له من دينه كل سنة ١٣٥٦٣ بليونا ويرجع للبلدة سيادتها متى فرغ من قبض دينه كله، لكن الاهالى لم يفوا بتعهدهم وعاد الامر الى الخصام، وبعد وفاة كاتبنا ظل ورثته يتخاصمون مع سكان القرية على هذه القضية حتى القرن الثامن عشر، لكن القرية مع ما

سببته لكيبيدو من متاعب وآلام مدينة له بالخلود اذ لا يذكر اسم كاتبنا الا وذكر اسمها مقرونا به ٠

وقبل ان نفرغ من الكلام على هذه الدعوى يجدر بنا ان نذكر ان بلدة «طورى دى خوان آباد» ومعناها فى الواقع «برج يوحنا أباد» كانت فى اول عهدها برجا رومانيا جدد بنيانه فى القرن الثانى عشر الفارس يوحنا أباد ومنه اتخذ اسمه، ثم وقع بين ايدى العرب من جملة ما وقع بين ايديهم من الحصون ، وعلى فرسخين منه بنوا بلدة «المدينة» المشهورة ٠

ولنرجع الآن الى سنة ١٦٠٩ حين اضطر كاتبنا الى فتح الدعوى على اهالى البلدة ، فقد كان هؤلاء ذوى حيل واسعة يعرفون بها كيف يتخلصون من تادية ما عليهم من الحقوق نحوه، فما ان بلغتهم المذكرة القضائية بوجوب الدفع حتى خف شيوخ البلدة وأعضاء مجلسها البلدى الى الكنيسة بأموالهم وأمتعتهم فاحتموا فى حرمها بعد ان استصحبوا ايضا دفاتر البلدية. وقد اتى الكاتب على ذكر هذه الحيلة التى حاولوا :لتخلص بها من الدفع فى العريضة التى رفعها الى مجلس قشتالة فى ١٥ يونيو من السنة المذكورة، واخيرا ملت اخته المخاصمة وحولت له حصتها٠ وتجنبا للانتقال الى البلدة عين كيبيدو احد اقاربه وكيلا عنه، لكنه لم يجده الامر نفعا واضطر الى دفع نفقات الدعوى التى بلغت ٤٠٠ دكة، فجدد الشكوى الى مجلس قشتالة فى رسالة بتاريخ ٢٥ ابريل من سنة ١٦١٠ من جملة ما جاء فيها : «ومن هذا تلحقنى انا واختى اضرار جمة اذ ليس لنا من ملك الا هذا الاقطاع ولا مورد رزق سوى ما يحصل منه، ولذا فاننا لتأخرهم عن الدفع

مدينون للغير بكميات كبيرة اضطررنا الى استدانتها لسد حاجات العيش » .

فمن هذه الرسالة نرى ان كاتبنا لم يكن فى ذلك العهد فى حالة يسر ورخاء ، ولذا لم ير اخيرا بدا من الذهاب بنفسه الى البلدة فقدمها وبمعيته قاضى الاستئناف فى طليطلة لعله يستوفى شيئا، لكنه لم يكد يبلغ خبر مجيئه حتى اسرع الاهالى من جديد ومعهم اعضاء المجلس البلدى الى حرم الكنيسة لكى لا تنالهم يد العدالة، ومن هنالك بعثوا اليه برسالة يطلبون فيها ان يبعد القاضى ويعاملهم باللين، فبعث اليهم برسول يباحثهم فى الامر، فاتفق معه اربعة وثلاثون منهم على ان يتعهدوا له بكميات معينة مقابل تنازله عن بعض الحقوق فقبل بذلك وامضيت عقود الاتفاق، لكنهم لم يفوا بما تعهدوا به ولم يستلم كاتبنا سوى كميات ضئيلة فرجع الى مدريد ووجه القضية فى اتجاه جديد آل فى آخر الامر الى ما اشرنا اليه سابقا .

لكن المتاعب التى سببتها له دعوى «طورى دى خوان آباد» لم تمنعه من مواصلة نشاطه الادبى خلال سنة ١٦١٠ ففى ٢٢ يناير اقتطفت يد المنون حياة صديقه الشاعر ضون لويس كاريو سوطومايور فخصه كيبيدو ببضع مراثى :

ونظم ايضا ثلاث مراثى لملك فرنسا هنرى الرابع الذى قتل فى باريس فى ١٤ مايو وقصيدة مدح للممثل المدريدى الشهير أغوسطين دى روخاس بياندراندو .

وبعد ذلك بقليل نظم الاغنية الشهيرة باسم «رسالة اسكارامان الى ابنة منديث » وجواب ابنة منديث على

اسكاراماان» وقد صادفت رواجا كبيـرا واقتبس منها الكثير من الشعراء والروائيين مواضيع لمؤلفاتهم ، وقد جرأه ما نالته هذه الاغنية من الرواج على طلب رخصة من مجلس قشتالة لطبع «حلم يـوم الحشر». فعهـد المجلس بمطالعتـه الى الراهب انطولين مونطوخو من الآباء المرشدين. فأجاب فى فاتح يوليو من سنة ١٦١٠ بانه لا يجوز منح المؤلف رخصة للطبع، وبعد مدة جدد كيبيدو الطلب فعهد الآن بقراءته الى القس انطونيو دى سانطو دومنغو استاذ اللاهوت ومن رهبنة الفرنسيسكان، فقدم تقريره فى ٢٠ يوليو من سنة ١٦١٢ منوها بمحاسن ذلك التاليف، لكن رغبة كيبيدو فى طبع مؤلفه كانت قد ولت اذ كان يريد اخراجه قبل سفر الكوندى دى ليموس نائب الملك فى نابولى الى عاصمة ولايـتـه .

* * *

فى ١٨ سبتمبر تلقى الدوكى دى اوصونا مرسوما ملكيا بتعيينه نائبا للملك فى صقليه وقائدا عاما لقواتها، وفى ٢٥ اكتوبر غادر مدريد ميممـا وجهه شطر برشلونة ليـركب منها السفينة التـى ستحمله الى صقلية، ومـن المرجح انه استدعى صديقه كيبيدو لمرافقته لكن اشتغال كاتبنا بدعوى «برج خوان آباد» حال دون ذلك، فظل فى مدريد يواصل حياته الادبية.

وفى غضون هذه المدة كانت حالته المادية تنحدر من سىء الى اسوأ، ولـذا نراه فـى اواسط ابريـل ينتقل الى طليطلة ويستحصل على امر قاطع لتدفع اليه جميع الوثائـق والرسوم المتعلقة بدعوى «برج خوان آباد»، وفى هذه الزيارة لطليطلة وقع

توكيلا لاشخاص آخرين ليقوموا نيابة عنه بجباية بعض ديونه . كما انه زار بضعة اصدقاء له كانوا يقيمون فى تلك المدينة نخص بالذكر منهم استاذه القديم ايام كان طالبا فى جامعة القلعة الدكتور لويس تينا والمؤرخ الشهير الاب خوان ماريانا مؤلف «تاريخ اسبانيا العام» وكان قد عهد اليه النظر فى طبعة التوراة التى اخرجها العالم الكبير الدكتور ارياس مونطانو فافاد بصلاحها ، فلما زاره كيبيدو عرض عليه النصوص العبرية التى كانت قد دفعت اليه لانه كان قد شح بصره وكان كيبيدو كما اشرنا الى ذلك فى غير موضع متضلعا فى اللغة العبرية، هذا وان مؤلفات الاب ماريانا قد اثرت على كيبيدو تاثيرا كبيرا.

لم تطل اقامة كاتبنا فى طليطلة اذ سرعان ما غادرها الى «برج خوان آباد» لتصفية بعض المسائل املا فى تحسن حالته المالية. وفى اواخر نوفمبر اذا به من جديد فى العاصمة فيحضر اجتماعات «اكادمية» الكوندى دى صلدانيا الحديثة العهد . ولا شك انه قرأ فى هذه الجلسات بعض منظوماته ومؤلفاته النثرية، لكن حياة هذه الاكادمية كانت قصيرة لتدخل اناس لا يمتون الى الادب بصلة فى شؤونها وفى اواسط فبراير من سنة ١٦١٢ تأسست أكادمية أخرى من جملة من حضر جلساتها ميغيل دى سرفانطيس ولوبى دى بيغا، غير انها لم تلبث ان تبعت أختها السابقة، وحلت محلها واحدة جديدة عرفت باسم «البارناس» او «اكادمية سلباخى» من اسم مؤسسها ضون فرنسيسكو سلبا اى مندوثا، لكنه من المرجح ان كيبيدو لم يحضر اجتماعاتها وان كان من المحتمل انه مدها ببعض مؤلفاته الشعرية والنثرية، ففى

٢٦ ابريل من سنة ١٦١٢ نراه يؤرخ «فى القرية» اى فى برج خوان آباد تقدمة «العالم من الداخل» الذى بعث به الى الدوكى دى اوصونا الى مدينة باليرما وقد جاء فى المقدمة «انى لا اطلب من مؤلفاتى هذه سوى الاسم وان اعز اسم على هو ان اكون خادما لسعادتكم»، ومن هنا تتضح من جديد رغبته الاكيدة فى الالتحاق بالدوكى حينما يفرغ من تدبير اموره الخاصة ٠

فى اواخر اغسطس او اوائل سبتمبر عاد الى مدريد وصادف رجوعه اليها وجود الدوكى دى هومين الذى قدمها فى شهر يوليو موفدا بسفارة فائقة العادة من جانب ملك فرنسا لتوقيع الاتفاق الفرنسى ـ الاسبانى فنظم قصيدة خلد فيها ذكرى هذه الزيارة وضمنها تلميحات قارصة الى ما استصحبه رفقاء الدوكى من حجارة كريمة مغشوشة٠

لكنه لم تطل اقامته فى مدريد بل غادرها من جديد الى برج خوان آباد رغبة فى وضع حد لقضية تدبير املاكه الخاصة فى القرية، وهناك الف كتابا طريفا اسماه «اسرار الحقيقة ـ المذهب الادبى لمعرفة الانسان نفسه وعدم الاغترار بشؤون الغير» ٠ وبعث به مع رسالة الى صديقه ضون طوماس طامايو دى بارغاس الذى كان يقيم فى طليطلة، وهو اذاك فى الثالثة والعشرين من سنه، وكان بارعا فى اللغتين اليونانية واللاتينية متضلعا من الادب والفنون والعلوم الدينية والمدنية فنال بذلك كله شهرة واسعة ووضع عدة مؤلفات استحقت كلها اعجاب الادباء وتقديرهم ، وقد ظل الكتاب الذى اهداه اياه كيبيدو متداولا بين الايدى مخطوطا حتى طبع فى سرقسطة سنة ١٦٣٠

لم يزل كيبيدو ينتقل بين مدريد وبرج خوان أباد حتى تمكن فى مطلع سنة ١٦١٣ من استلام تدبير املاكه الخاصة فى القرية، واذاك عزم على الاقامة فيها مبتعدا عن ضوضاء المدينة وصخبها، وكاننا به قد داخله الندم على ما سبق منه من عبث وطيش فقصد التوبة الى الله عن حياته الماضية، فتفرغ الى التامل والدرس واذا به فى ٨ مايو يبعث الى رئيس اساقفة طليطلة الكردينال ساندوبال اى روخاس بترجمته لمراثى ارميا مسبوكة فى قالب جديد اسماه «دموع ارميا القشتالية» وارفقها باهداء جاء فيه ما يلى: و«بهذا اقدم دروسى التى هى قصيرة ورغباتى التى هى كبيرة الى عطف نيافتكم. وقداستها وعلمها وهى التى تعرف كيف تكافىء النوايا الطيبة وتصفح عن الاخطاء وتعذرها» وبعث بنسخة من المؤلف نفسه فى ١٢ يونيو الى صديقه الراهب لوقادى مونطويا من كبار اللاهوتيين والخطباء الدينيين وارفقه برسالة جاء فيها: «ما عسى ان يبعث به رجل وحيد من صحرائه الا الدموع ؟ » .

وفى هذه الآونة انهى ايضا مؤلفه «قصائد اخلاقية ودموع تائب» وبعث به الى عمته فى ٣ يونيو مع رسالة تنبى بنفس هذه الرغبة فى التوبة، وهى نفسها تظهر من ثنايا الكلمة التى قدم بها للكتاب موجها اياها للقارىء اذ قال: «انت الذى سمعتنى حين تغنيت بما أوحته الي الشهوة او الطبيعة استمع الآن بأذن أصفى وانقى الى ما تمليه على العاطفة الحقة والتوبة التى تبتها» . فلا غرو ان تجود قريحته وهو على هذه الحالة النفسية بقصائد تفيض حماسا دينيا فيقول :

«الى هذا الحد بلغ ما صدر عنى من شر !
فانك انت نفسك ستستعظمه وان كنت به عارفا يا موجد النهار الازلى»

ويتطلع الى حقارة هذه الحياة الفانية فيقول :

«كل آونة من هذه الحياة البشرية
حجة جديدة تنبهني
الى مقدار عطبها السريع وبؤسها وبطلانها»

ولم تخف الطبيعة بمناظرها الخلابة والحياة القروية الساذجة بما فيها من بساطة ولذة على قريحته الخصبة فنظم قصيدة عامرة تتجاوز المائة وعشرين بيتا بعث بها الى صديق له طبيب كان قد كتب اليه من مدريد مستوحشا بعده وانزواءه .

وفى هذه الوحدة والانزواء انهى كيبيدو قصته «حياة الشاطر ضون بابلوس» وهى درة فريدة من درر الادب الاسبانى وخير ما انتجه فن قصص الشطار الذى راج فى ذلك العهد رواجا كبيرا . وقد نقلناها الى العربية وصدرناها بمقدمة عن قصص الشطار فى الادب الاسبانى .

لكن الانزواء لم يطل واذا بنا فى ١٢ اغسطس من سنة ١٦١٣ نجده فى مدريد حيث عين وكيلا ليقبض له ٦٦٧٠ «مارابيدى» كانت لم تزل مستحقة لوالدته مقابل خدمتها للملكة .

وبينما هو على هذه الحالة وصلته دعوة الدوكى دى اوصونا فتاهب للسفر. وفى اواسط سبتمبر او اواخره ركب البحر قاصدا باليرمو .

الفصل الرابع

كيبيدو فى صقلية

لما قدم الدوكى دى اوصونا صقلية نائبا عن الملك كانت الفوضى ضاربة اطنابها : فالخزينة فارغة والنقد مزيف والامن مفقود بحيث لا يحجم المجرمون عن اقتحام الحوانيت فى مسينا فى رابعة النهار، فعمد الى هذا الوضع بيد من حديد فعادت الخزينة عامرة والنقد صحيحا، وتخلصت المدينة من اللصوص واستقامت العدالة وانتظمت الاحوال، وعزز البحرية الملكية التى فى صقلية واعاد لها هيبتها فى المعارك التى جابه فيها القراصنة الاتراك فكان النصر حليفه، وجملة القول ان صقلية لم تعرف قط عهدا خيم خلاله الامن عليها ورافقها العز فيه كعهد الدوكى دى اوصونا، «لكن ساعد الدوكى ـ كما يقول احد المؤرخين ـ وكله عزم واقدام كان بحاجة الى رصانة رأس رزين وسياسى، بالنظر الى الشكل الذى أشرعت تتخذه الاحوال، ليجمع بين الجرأة العظيمة والحكمة الجمة، وهكذا رأى بعقله الصائب خير مكمل له فى شخص ضون فرنسيسكو» .

ومن الصعب ان نعين بالضبط اسم المنصب الذى اسنده الدوكى الى كيبيدو، والواقع هو انه اتخذه صديقا ورفيقا وجعله موضع ثقته ليعهد اليه القيام بجلائل الامور وعظام المهمات الدقيقة التى تتطلب تعقلا كبيرا ومهارة نادرة ٠

يظهر ان وصول كيبيدو الى باليرمو وافق اواخر اكتوبر من سنة ١٦١٣ فاستقبله الدوكى استقبالا وديا وأحاطه بمظاهر التقدير والعطف، وبعد ان اطلعه على الوضعية السياسية والعسكرية فى صقلية ابلغه حاجته اليه للاتصال بوزراء نابولى وميلان وبالبابا والعظماء للبحث معهم فى الحرب الناشبة فى البيامونتى التى اشعل نارها كارلوس مانويل، امير سابويا ٠

ولفهم هذه الحالة لا بد لنا من القاء نظرة سريعة على الوضعية السياسية الايطالية فى ذلك العهد، فصقلية وسردينيا ونابولى وميلان كانت خاضعة للحكم الاسبانى، وامارات جنوة ومانتوا وبارما ومودينا وتوسكانا كانت مستقلة اسميا لكنها فى الواقع متأثرة بالحكم الاسبانى، ولم يكن يتمتع بالاستقلال التام سوى امارة سابويا وجمهورية البندقية والممتلكات البابوية٠ فامارة سابويا استعادت وحدتها واستقلالها تحت حكم اميرها فيليبرتو الذى ارجعت اليه معاهدة «كاتو ـ كامبريسيس» ممتلكاته وخلفه ابنه كارلوس مانويل المذكور سابقا٠ وقد كان هذا الامير جشعا وعاقا، يتقلب بين فرنسا واسبانيا، فمن هذه يتناول ٢٠٠٠٠٠ دكة سنوية فضلا عن عطايا اخرى مخصصة لاولاده ٠ لكنه كان يحلم بتوسيع ممتلكاته فضلا عما يكنه من حقد نحو شقيق

زوجته ملك اسبانيا فيليب الثالث اذ كان متزوجا بابنة فيليب الثانى .

اما البندقية فكانت تواصل الحرب ضد الاتراك للدفاع عن ممتلكاتها الشرقية، لكنها فى الوقت نفسه اعربت دائما عن عدائها نحو اسبانيا ومقاومتها للسيادة الاسبانية فى ايطاليا.

وهكذا نرى ان الامارتين المستقلتين فى ايطاليا كانتا معاديتين لاسبانيا فى ذلك العهد .

قلنا ان وصول كيبيدو الى باليرمو صادف نشوب الحرب فى البيامونتى اذ اجتاح الدوكى كارلوس مانويل مقاطعة مونغراتو وبدأ يتحدى امير مانتوا، فلم تمض سوى بضع اسابيع على وصول كاتبنا حتى خرج فى مهمة سرية استكشافية، فبلغ مدينة «نيسا» الخاضعة حينئذ لامير سابويا ، ولاحظ من اهلها ميلا نحوه وملك اسبانيا، لان جور الدوكى كارلوس مانويل كان الب لخواطر والاحقاد عليه، ففى عشية ٣١ اكتوبر ثار سكان المدينة بكاتم اسرار الحاكم وقتلوه وجروه فى الشوارع ، فأقبل الامير وانتقم منهم باعدامه كبار المدينة ووجهائها، فازدادت بهذا الانتقام رغبتهم فى التخلص نهائيا من نير حكمه، واكتشف كيبيدو اثناء وجوده فى المدينة ان الحامية فيها قليلة وان الحصن لا يحميه سوى مائة وخمسين جنديا وانه من السهل احتلال الفجاج المؤدية الى امارة البيامونتى والاحتفاظ بها وان اسوار مرفأ فيافرانكا الضعيفة تسهل النزول، لكن هيبة الدوكى كانت مستولية على النفوس، وقد اطلع كاتبنا على نواياه من احد افراد بطانته، الذى كان قد اضافه فى داره. فغادر المدينة فى الليلة التى سبقت اعدام

كبارها مستصحبا معه ابن مضيفه وابنتيه لئلا يلحقهم اذى، فبلغ جنوة ومنها تابع السير الى صقلية فاطلع الدوكى دى اوصونا على مشاهداته، ودله على سهولة القيام بحملة على نيسا ، لكن المشروع حبط بسبب خيانة حاكم ميلان المركيس دى اينوخوسا الذى كان مستسلما الى امير سابويا .

ويجمل بنا القول ان كيبيدو وسط مغامراته هذه لم ينس ربة الشعر، فقد نظم وهو فى جنوة «سونيت» رائعة فى وصف تاوهات الطير المعروف باسم «المنفرد» وقد ابصره فى مغارة واقعة فى روض قريب من المدينة .

* * *

عاد كيبيدو الى صقلية وامضى ما بقى من السنة مشاطرا الدوكى متاعب الحكم ومساهما معه فى الاخطار وقام بمهمات وعرة لاستئصال شأفة الحرب من لومبارديا، ولم يهمل نشاطه الادبى خلال المدة نفسها اذ تألف فى مدينة باليرمو حول الدوكى دى اوصونا بلاط ادبى يشجعه الدوكى بنفسه، واتصل كيبيدو بكبار شخصيات الجزيرة واستحكمت روابط الصداقة بينه وبينهم . وترجع الى هذا العهد ترجمته «لرسالة الكردينال قيصر بارونيا الى فيليب الثالث بشأن مملكة صقلية» وتأليفه «هجاء أهل البندقية تحت اسم رسالة موجهة الى الارشيدوق فرديناند من الاوسكوك ـ وهم من سكان كرواتيا على حدود المجر ـ يشتكون فيها من البندقيين » .

* * *

فى اواخر ربيع سنة ١٦١٤ عاد الى مدريد موفدا من جانب الدوكى دى اوصونا ليتعرف الى رأى مجلسى الدولة وشؤون ايطاليا فيه، ويستنتج من رسالة خيالية الحقها سرفانطيس بمؤلفه «رحلة البارناس» ان كيبيدو كان فى مدريد فى شهر يونيو من تلك السنة، وان الاديبين الكبيرين كانا صديقين حميمين، وقد شهد سرفانطيس بعبقرية كيبيدو فى المؤلف المذكور.

وصادف وجود كاتبنا فى مدريد انتشار بعض نسخ مخطوطة فيها من مؤلف جديد لعدوه اللدود غونغورا تحت عنوان «حكاية بوليفيمو غالاطيا» اقتبسها من مؤلف عنوانه «حكاية أسيس وغالاطيا» للويس كاريودى صوطومايور الذى كان قد توفى منذ سنوات قليلة حسبما اشرنا الى ذلك سابقا وقد نهج غونغورا فيه نهجا جديدا من حيث الاسلوب فسلك طريق التصنع الانشائى الذى ستعرف به مدرسته فيما بعد، فلم يملك كيبيدو نفسه عن مهاجمته بقصيدة تضمنت من النقد لاذعه ومن السخرية مرها.

* * *

انهى كيبيدو المهام التى جاء بها وعاد الى صقلية فبلغها حسبما يظن فى اواسط الخريف، ومكافأة له على حسن قيامه بها سعى الدوكى دى اوصونا فى انتخابه سفيرا لبرلمان صقلية لدى ملك اسبانيا ليحمل اليه مقرراته ومن جملتها المصادقة على استمرار جميع العطايا العادية والفائقة العادة، وقرر ايضا منح الملك لمدة تسع سنوات اخرى ٣٠٠٠٠٠ دكة، واعتمد البرلمان ٣٠٠٠٠ دكة لاهدائها الى الدوكى دى اوثيدا ابن الوزير الاكبر دى ليرما، ومنح كيبيدو خمسة آلاف دكة، فسار بالهدايا بعد ان

عهد اليه الدوكى دى اوصونا بمهمة خطيرة وهى ان يسعى مع رجالات البلاط لتعيينه فى السنة المقبلة، متى انتهت مدة ولايته فى صقلية، نائبا للملك فى نابولى، واوصاه ان يفتح يده لذوى الامر والنهى والا يدخر وسعا ولا بذلا فى سبيل امنيته وليس عليه الا ان يطلب ليوافيه بالمال اللازم.

خرج كيبيدو من مسينا الى مرسيليا ومنها الى تولوز وهنالك قبض عليه البروتستانت اتباع الدوكى دى كوندى الذى كان اذاك ثائرا على ملك فرنسا، لكنه لم يلبث ان اطلق سراحه وتابع السير الى ان بلغ مدينة بورغس حيث كان الملك والبلاط اذاك بمناسبة حفلات التصاهر بين العائلتين المالكتين فى فرنسا واسبانيا فاستقبل استقبالا حافلا يليق به ـ وبنوع خاص بالهدايا القيمة التى كان يحملها ـ ثم انتقل حالا الى مدريد ليباشر القيام بالمهام التى عهد بها اليه الدوكى دى اوصونا، وكان انداد اوصونا كثيرين وكل منهم يستعمل ما لديه من الوسائل ليضمن تعيينه نائبا للملك فى نابولى، لكن سرعان ما اخذ كيبيدو باسم سيده يتغلب عليهم مكتسبا الى جانبه خواطر رجالات البلاط وارباب الحل والعقد، فقد وجد ان الرشوة فى ذلك البلاط المنحل هى الباب الوحيد، فبعث اليه الدوكى دى اوصونا بثلاثين الف دكة كانت بيده سيفا قاطعا يهول به فوق رؤوس الاضداد ومغناطسا قويا يجذب اليه جميع من بيدهم قدر من السلطة او النفوذ وقد عبر عن ذلك كيبيدو نفسه احسن تعبير فى رسالة بعث بها حينئذ الى الدوكى دى اوصونا وقد جاء فيها : «واقسم بالله انى بالثلاثين الف دكة التى بين يدى لاذيقهم الامرين ولن

يصمد لى واحد منهم... والحق يقال انه لامر عظيم ان يعرف وجود المال وان لم يعط، فوالله ان دارى كانها فى عيد دائم من كثرة الداخلين والخارجين. وان لى وحدى حاشية تربو على حاشية مجلس بكامله».

من هذا الكلام يستدل على الاثر الكبير الذى فعلته فى نفوس افراد البطانة الملكية النافذين معرفتهم بما بين يدى كاتبنا من مال جاء لينفقه فى سبيل الحصول على منصب لسيده، وقد اصاب الدوكى دى اوثيدا اكبر نصيب منها. واصاب عدة اشخاص آخرين كميات أخرى تتفاوت قدرا حسب تفاوت نفوذهم فى البلاط، وخلاصة الامر ان كيبيدو وجد الطريق المؤدى الى تعيين اوصونا نائبا عن الملك فى نابولى فسلكه واثقا من النصر.

وبالرغم من اشتغاله السياسة الكبرى لم يهمل الادب، وقد صادف وصوله الى مدريد ظهور القسم الثانى من كتاب «ضون كيخوطى» فنظم له قصيدة تقريظية عنوانها: «وصية ضون كيخوطى» كما انه نظم «سونيت» ردا على واحدة مثلها هجاه بها غونغورا الذى كان قد ارسل الى بعض العظماء مؤلفه الشعرى الجديد «الوحدة» فلم يلق رواجا. فاتهم كيبيدو بانه هو الذى حملهم على الاعراض عنه فلذلك هجاه كما قلنا ورد عليه كاتبنا.

واخيرا بعد ان رأى مفاوضاته من اجل مولاه سائرة فى طريق النجاح المضمون ظهر له ان الوقت قد حان ليفكر بشأن نفسه فرفع عريضة الى الملك يطلب فيها مكافأة ما تكون لها صفة ثابتة بالنظر الى ضيق ذات يده، فانعم عليه فيليب الثالث بمعاش سنوى فى ايطاليا قدره اربعمائة دكة.

لم يبق عليه اذا الا ان يرفع مولاه الى سدة ولاية نابولى ولن يكل ساعده حتى يبلغ هذا الهدف، وكان مما يقوى امله فى النجاح تأييد كل من الدوكى دى اوثيدا الذى تلقى الثلاثين الف دكة عدا عن هدايا اخرى قيمة اولاب الياغا مرشد الملك الذى قدمت اليه بعض الهدايا ايضا وبالرغم عن معارضة الدوكى دى ليرما فى تعيينه فقد تغلبت على ارادة الملك وساطة الاب الياغا والدوكى دى اوثيدا الذى كان قد بدأ يحفر الحفرة لابيه دى ليرما كى يحل هو محله، واخيرا صدر الامر الملكى فى اوائل ابريل بتعيين اوصونا نائبا عن الملك فى نابولى ولهذا تحققت امانى كيبيدو وكللت مساعيه بالفوز الباهر، وفى ١٣ منه بعث اليه برسالة يبلغه تعيينه ويوصيه بالاسراع الى ولايته الجديدة كى لا يترك فرصة لمداخلة الغير، وبعد ذلك بعشرة ايام اى فى ٢٣ ابريل توفى كاتب اسبانيا الاكبر وصديق كيبيدو الحميم ضون ميغيل دى سرفانطيس، لكن التاريخ لم يحفظ له اية مرثية فيه فلا نعلم ان كان رثاه وضاعت المرثية او لم يرثه لانشغاله اذاك بالمهام السياسية الكبرى التى كانت تستغرق كل وقته واهتمامه ٠

وبعد ان فرغ من اعداد معدات السفر يمم وجهه شطر قرطاجنة ليبحر منها الى ايطاليا حسبما اعلم بذلك مولاه اوصونا فى رسالته السابقة، وفى ٢٠ يونيو نجده فى تلك المدينة منتظرا وصول السفينة التى ستحمله الى نابولى، وخلال مدة الانتظار تجول فى انحاء المدينة، ومن جملة ما شاهده فيها مصنعا بنى من

حجارة أخذت من قبور رومانية، فجادت قريحته بسونيت يحمل فيه على من يعرون الغير ليتزينوا بلباسه.

* * *

فى اواخر اغسطس او اوائل سبتمبر من سنة ١٦١٦ وصل كيبيدو الى نابولى فاستقبله اوصونا بكل ترحاب وعطف وتقدير، وكان الدوكى قد انتقل الى ولايته الجديدة التى تلقته ببهجة واعجاب يفوق كل وصف لان شهرته كانت قد طبقت الآفاق وسارت فى كل انحاء المملكة الاخبار بعدله فى القضاء وتشدده مع المجرمين وعنايته بشؤون الدولة، لكنه لم يكن ليقول كلمته الاخيرة فى امر صغير او عظيم قبل ان يستشير صديقه كيبيدو ويقول المؤرخ تارسيا «انه عهد اليه خاصة بشؤون المالية اذ لم يجد اوفى منه لهذا المنصب فساسه بنزاهة واخلاص واكتشف اختلاسات عديدة عادت على الخزينة الملكية بربح قدره اربعمائة الف دكة، ومما حمل على الاعجاب به وتقديره تقديرا فائقا هو انه مع امكانه ان يغتنم لنفسه مبلغ خمسين الف دكة دون ان يخل بواجبات منصبه فضل ان تعود للصالح العام وبتصرفاته النزيهة كان يزداد قدرا فى نفس نائب الملك الذى لم يكن ليأتى امرا ما دون ان يستشيره اولا ، وبذلك كانت كل تصرفاته تأتى طبق رغباته فكسبت تصفيق الجميع واعجابهم » .

هذا وان كاتبا ايطاليا معاصرا لكيبيدو واوصونا اسمه فرنسيس ساتسيرا كتب «يوميات» ذلك العهد مسجلا فيها يوما فيوما الاعمال الرئيسية التى كان يقوم بها اوصونا ، والاشارة فى هذه اليوميات الى كيبيدو كثيرة وكلها تدل على عظم مكانته لدى

الامير، وقد حقق هذا طيلة مدة حكمه فى نابولى ما علق عليه من آمال، فساد العدل والامن، واستقامت امور الدولة وماليتها، وعزز بحريتها، وضرب على ايدى المفسدين والمجرمين واللصوص وقطاعى الطرق، ولم يكن يعرف فى الحق لومة لائم، ولا شك ان عهده كان من خير العهود التى عرفتها نابولى كما عرفتها من قبل صقلية .

وبعد ان نظم الشؤون الداخلية اخذ اوصونا يفكر فى مد النفوذ الاسبانى على ايطاليا والقضاء على سلطان البندقية فى البحر الادرياتيكى والشرق اذ كانت هى عدو اسبانيا اللدود وكانت تمد الدوكى دى صابويا بالمال والرجال والذخيرة فى حربه مع اسبانيا، فصمم اوصونا على التصدى لهذه الوضعية مستعملا الحيلة والخدعة ردا للخدعة، فأعلم ملكه انه سيجهز اسطولا باسمه الخاص لتبقى هكذا يد الملك مطلقة فيمكنه ان ينقض متى اقتضى الامر ما يعمله اوصونا .

وبينما الامور على هذه الحال انعقد برلمان مملكة نابولى فى ١٨ فبراير من سنة ١٦١٧ وصوت على المنحة العادية للحضرة الملكية وقدرها ١٢٠٠٠٠٠ دكة عن سنتين أخريين وصوت ايضا على ١٠٠٠٠ دكة تمنح للدوكى دى اوثيدا و ٨٠٠٠ دكة لكيبيدو الذى عهد اليه ثانية بحمل المنحة الى البلاط وتقديمها لجلالته. وقرر البرلمان من جملة ما قرره ان يلتمس من الملك فيليب الثالث الا يسمح للكوندى دى ليموس ولا لاخيه الكوندى دى كاسترو بالمداخلة فى شؤون نابولى.

لكن اوصونا كان يرغب فى اشراك البابا بولس الخامس فى

مشروعه لاحلال النفوذ الاسبانى موضع السلطان البندقى فى الادرياتيكى ولم يكن لهذه المهمة الخطيرة سوى كيبيدو فغادر نابولى فى ١٢ ابريل من تلك السنة مزودا برسائل الامير الى جميع الحكام والسلطات والضباط ليعاملوه اينما حل كما لو كان نائب الملك بنفسه، وفى ١٧ او ١٨ منه بلغ المدينة الخالدة وحظى بمقابلة الحبر الاعظم وشرح له الخدمات الجليلة التى اداها مولاه اوصونا للمسيحية بانتصاراته العديدة على الاتراك والح على تذليل البندقية التى تفتح بسياستها المالوية ابواب ايطاليا فى وجه الهراطقة من هولنديين وفرنسيين، ويستفاد من الرسالة التى بعث بها قداسته الى الدوكى انه اقتنع بحجج كيبيدو وحبذ المشروع الذى عرضه عليه ٠

وبالرغم عن خطورة المهمة التى جاء فيها كيبيدو ولم يهمل الادب والفن، فزار آثار روما الشهيرة واستمتع بجمالها واعجب بعظمتها واشترى فيها كثيرا من الكتب النادرة والمخطوطات القيمة، وقد تركت مشاهدة روما فى نفسه اعمق اثر فنظم فيما بعد «السونيت» الشهيرة التى عنوانها «الى روما المدفونة بين آثارها» وحذا فيها حذو الشاعر الفرنسى يواكيم دى بيلاى Joaquín de Bellay فى سونيت فى الموضوع نفسه مدرج فى مؤلفه «الكتاب الاول عن آثار روما القديمة» المنشور فى باريس سنة ١٥٥٢ وقد اوحى اليه ذكر روما قصيدة أخرى مطلعها :

«ان روما العظيمة التى تشاهدها عيناك الآن
كانت أيها الضيف فيما مضى كلاً وهضبة

في أول أمرها كانت مسرحا للماشية
وها أنت الآن تراها ملكة العالم ومولاته»

* * *

ما ان عاد الى نابولى حتى امره اوصونا ان يتأهب لنسفر الى اسبانيا حالا، فركب البحر فى آخر يوم من شهر مايو حاملا المنحة الموجهة الى الملك من جانب مملكة نابولى ومصحوبا «بفرغاطتين» ويظهر ان اوصونا كلفه من جملة ما كلفه به بأن يسعى لتزويج ابنه بابنة الدوكى دى اوئيدا وسار بحرا حتى مرفأ مرسيليا ومن هنالك واصل السفر برا وبعد سفره بأيام تلقى رسالة من القبطان بنثيغيرا مؤرخة فى ٤ يوليو من تلك السنة يعلمه فيها انه بعد خروجه بثلاثة ايام بلغه الخبر اليقين بأن ستة فرسان خرجوا من نيسا ومعهم صورته وصفاته ليقتلوه ظنا منهم انه سينزل فى مرسيليا ليسافر برا وارسل القبطان رسالة اخرى فى المعنى نفسه الى حاكم قطلونية، فما كاد يصل كيبيدو الى برشلونة حتى احاطه الحاكم بفرقة من الخيالة تحميه من كل اذى رافقته حتى بلغ ولاية اراغون، وفى ٢٤ يوليو بلغ مدريد فاذا بالملك فى الاسكوريال ، فزار اولا الدوكى دى اوئيدا ومرشد الملك الاب الياغا، ثم طلب مقابلة الملك سرا. فحظى بها ودامت المقابلة ساعة ونصف ساعة اطلع كيبيدو خلالها الملك على تفاصيل مشروع نائبه فى نابولى، وشرح له دقائق السياسة التى يسلكها فوافق الملك عليها كلها .

وكان كيبيدو منذ حل فى مدريد قد شرع فى تدبير شؤون اوصونا لاقصاء جميع منافسيه والحصول على المرسوم الملكى

بتجديد مدة ولايته على مملكة نابولى، وكان المنافسون كثيرين واعداء اوصونا فى البلاط الملكى لا يفتأون يحيكون المؤامرات لاظهاره امام الملك بمظهر المتمرد الذى يعمل لحساب نفسه دون ان يأبه بالاوامر السنية لكن كيبيدو كان واقفا للجميع بالمرصاد، وقد زوده مولاه بالمال الكافى لينستنزل الخواطر ويسهل العقبات فعاد الى تمثيل نفس الدور الذى مثله للمرة الاولى حين كان يسعى لثولية اوصونا نيابة الملك فى نابولى، فاغدق الاموال والعطايا، وتزلف الى الدوكى دى ليرما والى ابنه الدوكى دى اوثيدا ـ الذى كان قد اصبح صاحب الامر والنهى ـ وقد كللت جميع هذه المساعى بالنجاح وقبل ان تنتهى مدة ولاية اوصونا صدر الامر بتجديدها لثلاث سنوات أخرى.

ولم يهمل كيبيدو وصية اوصونا بتزويج ابنه الكوندى دى بنافيل بابنة الدوكى دوى اوثيدا، وقد كلفه تنفيذ هذه المهمة مشقة كبيرة لان الكوندى الشاب كان مغرما بفتاة جميله احرى. لكن كاتبنا تمكن من اقناعه بالنزول عند رغبة والده، واخيرا جرت حفلة الزواج فى أبهة لم يشهد لها نظير فى الكنيسة الملكية، سيكو زوجة أميرال قشتالة، وحضر عظماء الدولة وكبارها. وكان «العراب» الملك نفسه والعرابة الدوكة دى مدينة دى ريو واستلم والد العروس هدايا نفيسة بعث بها خاصة بهذه المناسبة الدوكى دى اوصونا على متن احدى سفنه، ولم يغفل اوصونا عن مكافاة كيبيدو على مساعيه هذه ، فكتب رسالة الى الملك يثنى فيها على نشاطه ونزاهته فى ادارة مالية نابولى واكتشافه الاختلاسات المرتكبة فى الشؤون المالية ويطلب منه ان يكافئه

مكافأة تتناسب وأعماله هذه فأجابه الملك فى ٢٨ يوليو ١٦١٧ بقوله انه يوافق على كل ما يكافئه به الدوكى دون ان تبدر من جانبه اية منحة معينة حسبما كان يرغب اوصونا لكنه بعد زواج الكوندى دى بينافيل بابنة الدوكى دى اوثيدا صدر امر ملكى فى ٢٩ دسمبر من سنة ١٦١٧ بتعيين كيبيدو عضوا فى جمعية فرسان سنتياقب ومنح مع هذا التعيين معاشا شهريا قدره مائتا دكة . واحتفل باتخاذه لباس الجمعية احتفالا شائقا حضره الدوكى دى اوثيدا نفسه. وبرز كاتبنا فى ذلك اليوم بحلة نفيسة وقد تقلد سيفا رصعت قبضته بالحجارة الكريمة .

وخلال هذه المدة التى قضاها فى العاصمة لم ينس مجالس الادب، فتردد عليها واتصل بأصحابه من الادباء، وصادف ان عدوه غونغورا كان قد تمكن فى الاخير من الانتقال نهائيا الى مدريد بعد ان سيم كاهنا واسندت اليه ادارة احدى كنائس العاصمة. فبمناسبة قدومه تجددت المناقشات حول مؤلفيه «بوليفيمو» و «الوحدة» الذين اشرنا اليهما فى مكان آخر. وعلم كيبيدو انه يطمح بوظيفة كنسية عالية فى قرطبة فهجاه بسونيت جديد .

* * *

فرغ كيبيدو من المهمات التى جاء فيها وقد كان النجاح حليفه فى كلها! واذاك كتب الى الدوكى دى اوصونا فى ١٤ مارس من سنة ١٦١٨ معلما اياه بكل ما جرى ومنتظرا اوامره للابحار الى نابولى، وبعد ايام قلائل كانت تقله السفينة الى ايطاليا، فاستقبل لدى وصوله استقبالا حافلا اشترك فيه رجال

الدولة والوجهاء والادباء ، ونظم الشعراء الايطاليون قصائد عديدة يحيونه فيها ويثنون على همته الكبيرة وعبقريته النـادرة وادبه الوافر، لكنه لم يكتب له الهدوء والسكينة فى هذه الفترة المجيدة من حياته لان اوصونا سيعتمد عليه لتنفيذ مشروع خطير اعده للقضاء على جمهورية البندقية، عدوة اسبانيا اللدود .

الفصل الخامس

حادثة البندقية ـ القطيعة بينه وبين اوصونا العودة الى اسبانيا

فى اواسط نوفمبر من سنة ١٦١٨ هاجم اوصونا اسطول البندقية وهزمه هزيمة شنيعة حطت من جبروت تلك الجمهورية ودكت بناء كبريائها الشامخ، فعمدت الى الحيلة والافتراء لترد ضربات الدوكى. واول عمل قام به سفيرها فى مدريد السعى باوصونا لدى الملك فيليب الثالث ونعته بالثائر متخذا الحجة على ذلك من رفع اوصونا علمه الخاص على السفن التى قهر بها اسطول البندقية بدلا من راية الملك. مع ان ذلك كان كما رأينا سابقا بعلم الملك وبموافقته.

فضاق اوصونا ذرعا وعزم على تأديب البندقية تأديبا قاسيا تتذكره الى الابد. وتم الاتفاق بينه وبين السفير الاسبانى فى تلك الجمهورية المركيس دى بيدمار، وحاكم ميلان المركيس دى بيا فرانكا. وبعث بكيبيدو الى البندقية ليتفاوض هنالك مع السفير ويعملا يدا بيد، فسار كيبيدو مصحوبا بالفرنسى جاك ـ بيار وشخص آخر لم يعرف بالضبط من هو. وبلغ البندقية مقنعا

وذلك فى الاسبوع الثانى من شهر مايو من سنة ١٦١٩ فتفاوض مع السفير بيدمار، وأعدت العدة كاملة لتنفيذ مشروع خطير من شأنه ان يصيب الجمهورية بضربة قاضية وأخذ رجال أوصونا يصلون سرا ويوزعون فى النقاط الرئيسية، وكان يؤيد المؤامرة بضعة اعضاء من مجلس الشيوخ غير راضين على الوضع الحاضر وعلى الحكومة الغاشمة. وتم الاتفاق سرا على ان ينفذ المشروع يوم عيد خميس الصعود وهو انسب يوم للامر لان الجمهورية كانت تحتفل فى ذلك النهار احتفالا كبيرا بما سموه «زواج البحر» فيخرج الدوكس ـ وهو لقب رئيس الدولة ـ ومجلس الشيوخ بكامله على متن السفينة «بوثنطورو» مزدانة بأبهى الحلل ووراءها ستة آلاف زورق تحمل عظماء المدينة ووجهاءها ويتقدمون خمسة عشر ميلا فى البحر ويرمى الدوكس خاتما من ذهب فى البحر ثم يعودون لمتابعة الاحتفالات الفخمة فى داخل المدينة.

وكان المتآمرون ثلاثة آلاف رجل لتنفيذ الخطة، ولم يكن احد ليشعر بوجودهم لتزييهم بغير زى الاسبانيين ووفرة القادمين على البندقية فى مثل ذلك النهار، وكان الاتفاق على ان تغتنم فرصة خروج الحكومة والوجهاء الى عرض البحر فتحتل اذاك جميع المراكز الرئيسية. ويلقى القبض على زوارق البندقية وسفينتها الكبرى «بوثنطورو» بمساعدة اسطول اوصونا المرابط قريبا، وتساق مع مجلس الشيوخ بكامله والدوكس وراية الجمهورية الى نابولى، ولم يكن غرض اوصونا من هذا كله الا تذليل البندقية وتحطيم كبريائها، لكنه برىء من التهم التى حاولت فيما بعد ان تلصقها به الجمهورية .

الا انه لم يقدر لهذا المشروع ان يكلل بالنجاح، ففبل موعد الهجوم وشى بالمؤامرة وابصر رجال الدوكى وهو فى المدينة السفينة تعود الى اعقابها. فاضطربت المدينة وعم القلق، واعطى ضباط اوصونا الاوامر لرجالهم بالهرب فاغتنموا فرصة قيام الفوضى وركبوا الزوارق وساروا بها الى حيث كانت تنتظرهم على بعد خمسة اميال سفن الدوكى.

عاد اعضاء مجلس الشيوخ وقد بلغ منهم الحنق كل مبلغ فصدرت الاوامر سريعا بملاحقة الاجانب ملاحقة قاسية فاعدم رميا فى البحر رفيق كيبيدو الفرنسى جاك بيار واكتظت السجون بالمعتقلين ورفع فوق المشانق عدد كبير من الناس فى ساحة القديس مرقص، ورميت بالحجارة دار السفير الاسبانى بيدمار وانبث العيون فى كل موضع يبحثون عن كيبيدو روح هذه المؤامرة وموقد نارها، لكن كيبيدو تمكن من مغادرة المدينة دون ان يصاب بأدنى أذى، متنكرا بزى سائل طريق معدم، ولم يكتشف امره لانه كان يحسن لهجة البندقية كأهلها انفسهم، وبهذه الحيلة أمكنه الخلاص من الانتقام الفظيع الذى كان ينتظره، وبلغ نابولى صحيحا سالما، وكم كان حنق مجلس الشيوخ عظيما حين علم بهربه، ولم يبرد غليله المتعطش الى الانتقام سوى احراق تمثال له اقيم لهذه الغاية فى ساحة القديس مرقص، وفضلا عن ذلك فان كويتبا ايطالى اسمه كاسطيانى كان قد باع قلمه للدوكى دى صابويا ونشر قبل تلك الحادثة ببضع اسابيع كتيبا بعنوان «التعليقات» حمل فيه على كيبيدو عمد الآن الى وضع مؤلف آخر عنوانه «معاقبة الافتراء المثلى» ضمنه الكثير من الاكاذيب

والافتراءات وبه يرمى الى ايقاع الفتنة بين الملك فيليب الثالث ونائبه فى نابولى، فافترى على هذا بقوله «انه يفكر فى ان يثور بمملكة نابولى ويتوج كيبيدو «ملكة على ايطاليا».

* * *

عاد كيبيدو الى نابولى بعد ان اُخفقت مساعيه، لكن الدوكى دى اوصونا لم يأبه للامر ولم يلبث ان احرز نصرا باهرا على اسطول البندقية غير ان هذه عمدت الى المكر والخداع والافتراء ، وأخذت تسعى اكثر من ذى قبل لتوسيع الشقة بين الملك ونائبه، وقد أدرك هذا بصائب نظره ان الامور سائرة فى هذا النحو فبعث بكيبيدو حالا الى مدريد ليتصدى لاتاذيب البندقيين، وفى ٢٢ يونيه بلغ العاصمة وفى اليوم نفسه وصلها بريد البندقية حاملا النبأ بالحوادث التى جرت مروية على حسب هواها. وفى اليوم التالى مثل سفيرها امام الملك وسلمه الرسالة وفيها يطلب نقل السفير بيدمار من البندقية دون تبيين السبب ، وحاول الوزير الاول الدوكى دى ليرما ان يتعرف الى السبب لكنه لم يحظ بجواب شاف، فانعقد اذاك مجلس الدولة فى النهار نفسه وطلب من كيبيدو تقريرا ضافيا عن حوادث البندقية، فقدم كيبيدو تقريرا القى فيه التبعة كلها على الجمهورية وبرر ساحة مولاه اوصونا. لكن المجلس بالرغم عن هذا قرر سحب بيدمار من البندقية وتعيين سفير آخر محله. ويظهر ان المجلس كان يضمر شيئا من الضغينة نحو اوصونا لاقدامه على تلك المغامرة دون اطلاعه عليها سابقا ـ لان المجلس كان يجهل ان الملك عالم بالامر ـ

فطلب من كيبيدو تقريرا جديدا فقدمه وجدد فيه الدفاع عن اوصونا .

لكن المجلس لم يقتنع كل الاقتناع بهذا التقرير، وذلك ان بعض اعضائه ـ وبنوع خاص الكوندى دى ليموس رئيس قسم الشؤون الايطالية ـ كانوا ناقمين على اوصونا ويبحثون عن مغتل يصوبون اليه سهامهم، فأخذت احقادهم تتضافر مع مكر البندقية على الايقاع بنائب الملك فى نابولى. وبدأت تتوارد على مدريد الشكايات بتصرفات الدوكى وساهم فيها اشراف نابولى الذين لم تكن لترضيهم استقامته. وطبعت مناشير اضيفت فيها الى اوصونا زورا تصرفات جائرة كان منها بريئا. وادخلت تلك المناشير الى البلاط الملكى حتى بلغت يدى الملك نفسه، فهاله ما قرأه منها وبدأ الشك يتسرب الى نفسه فى نائبه اوصونا.

فما عسى ان يفعل كيبيدو امام هذه الحالة ؟ اجل ! لقد سعى كما سعى من ذى قبل. واتصل بهؤلاء الذين وجد منهم فيما مضى تأييدا لمولاه. لكن الامور قد تبدلت الآن، وعطايا البندقية اصبحت تغطى على عطايا الدوكى ، وابصر كيبيدو هذا كله . وابصر فتورا فى اصدقاء اوصونا الاقدمين، فخامرته الريبة فى نجاح مساعيه هذه المرة، لكن عزمه لم يهن واخلاصه لمولاه وصديقه لم يضعف .

وقد ترك لنا فى كتابه «التاريخ الاكبر، فى ما جرى خلال ١٥ يوما» وصفا مفصلا للمجهودات التى بذلها وكان احد كبار رجالات البلاط الملكى ضون رودريگو كالديرون الملقب بالمركيس

دى سيبيطى اكليسياس (اى مركيس الكنائس السبع) يميل الى اعداء اوصونا. وأحس كيبيدو بذلك الميل منه فكتب الى مولاه يحذره منه ويوصيه الا يراسله. فما كان من اوصونا الا ان بعث بالرسالة الى كالديرون الذى اطلع كيبيدو عليها فى داره. لكن كاتبنا لم يجبن امام هذه المفاجأة واعترف بأنه صاحب الرساله. وبهذا انقطعت الصلات بينه وبين كالديرون، وطرق اذاك بابا آخر باب اوثيدا، فتقدم اليه بجرأة وحثه على ان يحول بنفوذه لدى الجناب الملكى دون تفشى تلك الافتراءات القتالة على حمى بنته، غيرانه لم يجد عنده سوى وعود ابصرها عرقوبية من لهجته ومقابلته وخرج من لدنه خائبا وكتب الى اوصونا يعلمه بحقيقة ما جرى وما آلت اليه محاولاته ومفاوضاته. وفى الوقت نفسه كتب الدوكى دى اوثيدا الى اوصونا يهيجه على كيبيدو ويشير عليه بوجوب اقصائه عن شؤون الدولة ونزع كل تفويض من يده. ووافق كتاب اوثيدا الحملات الشعواء التى كان اعداء الكاتب فى بلاط اوصونا يشنونها عليه. فتجمعت الشكايات التى املتها الاهواء والاحقاد والحسد لتشق الى نفس اوصونا طريقا للشك فى تصرفات صديقه وامين اسراره الوفى. وبدرت منه علانية عبارات واقوال تنم عن غضب كبير على تلك التصرفات. وبلغ به الامر ان انتدب خادمه لويس دى قرطبة ليواصل المفاوضات فى مدريد بعد ان اوصاه بأن يبلغ اوثيدا الا يبحث مع كيبيدو فى شىء من شؤون الدولة. واستولت الدهشة على كاتبنا امام هذا التدبير، فشد الرحال وعاد الى نابولى ليستوضح حقيقة ما جرى، واستقبله اوصونا استقبالا وديا وأطلعه كاتبنا على خفايا واسرار كثيرة لم

يجرأ سابقا على ابلاغه اياها فى رسائله. لكنه احس من المقابلة الاولى بأن اوصونا يتلقى اخباره بحذر وان تلك الثقة العمياء التى كان يضعها فيه قد تبددت فأوحى اليه شممه ان ينسحب من هذا الميدان الذى اصبح يحتاج الى نفاق ورياء ومخاتلة. وفى اليوم الثانى طلب من نائب الملك ان يسمح له بالعودة الى اسبانيا. «وهكذا ـ كما يقول احد الكتاب ـ نزل من تلقاء نفسه من تلك المرتبة العالية التى كان اعداؤه يمنون نفسه ان يدهوروه منها».

عاد بعد خمس سنوات ضحى خلالها بكل غال ورخيص وخاطر بحياته مرارا، صفر اليدين الا من التجارب. وكانت نفسه بحاجة الى الهدوء والاستقرار فعمد اولا الى تنظيم شؤونه ليتمكن من الانصراف الى الادب والشعر. وقد استقدم من ايطاليا كمية وافرة من الكتب المطبوعة والمخطوطة اضافها الى مكتبته الفخمة ففى اوائل سنة ١٦١٩ انهى كتابه «سياسة الله وحكم سيدنا المسيح» الذى كان بداه فى صيف سنة ١٦١٧. وفى سنة ١٦١٩ ايضا كتب «اول واخفى اضطهاد قام به اليهود ضد يسوع المسيح وضد الكنيسة فى سبيل المساجد» وفى هذه الآونة ايضا وضع مؤلفا شعريا فخما عنوانه «الى المسيح القائم من الموت» وهو لا شك خير مؤلفاته التى لها صبغة دينية.

وأمضى ما بقى من سنة ١٦١٩ فى مواصلة «حياة الاب طوماس دى بيانوبيا» التى كان بداها بين سنتى ١٦٠٩ و ١٦١٠ فى ١٤ فبراير من سنة ١٦٢٠ نجده من جديد فى قرية «برج خوان آباد» لكنه لم يتمكن الا من قبض كمية ضئيلة. وبالنظر الى هذه المماطلة العنيدة طلب من مجلس قشتالة ان يسمح له

ببيع حق السيادة على تلك القرية ليستوفى دينه. وكلف صديقا له لينوب عنه فى هذه الاجراءات فاشترى ذلك الصديق باسمه الخاص حق السيادة على القرية ثم حوله اليه .

وفى هذه المدة كانت الانباء عن الدوكى اوصونا تتوالى من سيىء الى أسوأ ومساعى الحساد تتضاعف وانتهى الامر بعزله من نيابة الملك فى نابولى بالرغم عن خدماته الجليلة التى رفعت عاليا اسم ملكه ووطنه.

اما كيبيدو فلم يمنعه اشتغاله بحياة «الاب طوماس بيانوبيا» وما اشرنا اليه قبل من مؤلفات دينية اخرى من الاخذ بنصيب فى ميدان الهزل الذى طالما كان فيه سباقا ايام الشباب. فكتب فى نفس هذه المدة «براءة واصلاح هذه السنة سنة ١٦٢٠» تعرض فيها لنقد الحالة الاخلاقية فى العاصمة.

وقبل ان يفرغ من وضع «حياة الاب طوماس دى بيا نوبيا» اضطر الى وضع ملخص لها كتبه فى اثنى عشر يوما من ٨ الى ٢٠ اغسطس من سنة ١٦٢٠ ليوزع فى ١٨ سبتمبر يوم الاحتفال بتطويب الراهب المذكور. وفى ذلك النهار كان العميان يبيعون الكتيب فى الاسواق بمناسبة الاحتفال الذى اشرنا اليه .

وفى ٢٣ من شهر اغسطس (آب) اشترى كاتبنا دارا فخمة فى مدريد. وفى السنة التالية اشترى دارا اخرى. ومن غريب الصدف ان هذه الدار الثانية كان مكتريها الشاعر لويس غونغورا فأخرجه منها كيبيدو. فانتقم منه غونغورا بقصيدة هجائية رد عليها كيبيدو بواحدة أخرى وتوالت القصائد الهجائية من الجانبين على نفس الوتيرة التى عهدناهما بها سابقا.

وبينما كانت حلقات الادب ومجالس السمر فى مدريد تتداول اهاجى الشاعرين وصلها فى يوم ١٠ اكتوبر (تشرين الاول) الدوكى دى اوصونا. وكان قد ندم على القطيعة بينه وبين كيبيدو وأدرك ان اصحاب الاغراض والغايات هم الذين سعوا حسدا لايغار صدره عليه. فلدى وصوله مدريد جرى يبحث حالا عن صديقه القديم ليعانقه ويعرب له عن اكيد عاطفته الودية نحوه. وقد اشار الى ذلك كيبيدو بصريح العبارة فى كتابه «الاخبار الكبرى لما وقع خلال خمسة عشر يوما» وكادت تستحيل دار كاتبنا منزلا للدوكى اذ طالما كان يرى فيها ليل نهار وفيها يستقبل الزائرين ويتحدث الى الاصدقاء ويجد من اسباب اللهو والسلوى ما ينسيه مصيبته فعظم الامر على اعدائه واعملوا الحيلة فى ذلك فما كان منهم الا ان استحصلوا على امر بسجن كيبيدو دون ان يذكر له سبب سجنه. وحيث انه كان من فرسان اخوية شنتياقت ارسل سجينا الى دير اوكليس وزج فى غرفة مظلمة رطبة وكان ذلك فى اوائل شهر ديسمبر (كانون الاول) فضلا عن ان اوكليس تكاد تكون ابرد بلدة فى اسبانيا كلها . فحدث ولا حرج عما لاقاه كاتبنا فى سجنه من الاهوال والآلام. ومضت عليه اشهر دون ان يخبر بسبب سجنه .

وبعد مدة صدر امر بنقله الى قرية «برج خوان أباد» اى باعتباره سجينا فى نفس داره. واخطر بألا يغادر القرية. واذاك انهى مؤلفه «سياسة الله» ونظم قصيدة رقيقة الحواشى يصف فيها الربيع فى حقول مونتيل بعد ان عض السجن عليه بنابه الحادة

فآلمه اشد ايلام. وبعث بها الى حبيبته فلوريس والقصيدة طويلة تتردد فيها هذه اللازمة :

«اما انا يا فلوريس» فسجين طريد
يعضنى الالم واشرق بالدمع بعيدا عن مالكتى
امحو الربيع واعكر النهار
وأشعل الجبال وأحزن المروج » .

لكن القدر كان يخبىء له ما يكن فى الحسبان. وذلك انه بعد قليل اى فى ٣١ مارس (اذار) من سنة ١٦٢١ انتقل الى رحمة الله الملك فيليب الثالث وخلفه فيليب الرابع. وتلا ذلك ما هو مألوف من تبديل فى رجال الحكم والحاشية. وأسند الملك الجديد الوزارة الى صديقه الكوندى دى اوليفاريس وامتدت يد الانتقام الى كل رجال العهد القديم وفى مقدمتهم الدوكى دى اوصونا والدوكى دى اوثيدا وضون رودريغو كالديرون ورئيس مجلس قشتالة واسمه اثيبيدو ـ وهو الذى امر بسجن كيبيدو ـ والاب الياغا وكثيرون غيرهم .

الفصل السادس

المحن الاولى واتصاله بالوزير الكوندى اوليفاريس

لم يكن قد مر على وفاة فيليب الثالث سوى سبعة ايام لما صدر الامر بالقاء القبض على الدوكى دى اوصونا وذلك يوم الاربعاء من الاسبوع المقدس الموافق ٧ ابريل (نيسان) من سنة ١٦٢١ فاعتقل فى دار المركيس دى لا بايى واقتيد فى عربة يحرسها اربعون جنديا الى قلعة «الاميدا». ثم شرعت لجنة القضاة المكلفة بمحاكمته وبمحاكمة الدوكى دى اوثيدا ايضا بتفتيش اوراقه ورسائله وامرت بسجن او نفى جميع الاشخاص الذين ظهرت اسماؤهم فيها ففى ٢٣ ابريل (نيسان) نفي الاب الياغا مرشد فيليب الثالث وفى ٢٤ ابريل(ايار) اعتقل الدوكي دي اوثيدا وبعد شهرين ضون روريغو كالديرون .

أخذت هذه الانباء تصل شيئا فشيئا الى كيبيدو فى منفاه فى برج خوان اباد. فسر فى بادىء الامر بسقوط الدوكى دى اوثيدا سبب كل محنته. وانهى حالا كتابه «سياسة الله» وبعث به مخطوطا مع رسالة اهداء الى الوزير الجديد الكوندى دى اوليفارس ليستميله الى جانبه. وفى ١٦ مايو شرع بوضع «الاخبار العظمى

لما وقع خلال ١٥ يوما» وكان يتخلل عمله الجدى نظم قصائد هزلية من اجملها واحدة عنوانها «عرس الحقل» .

لكن اعتقال الدوكى دى اوصونا وما عقبه من فرح فى البلدان المعادية لاسبانيا اثار ثائرته فصعب عليه ان يبقى مكتوف اليدين امام هذا الخطب. فتسلل متنكرا الى قلعة هناريس حيث كان له بعض الاقارب لعله يتمكن ان يدبر من ثم حيلة لفرار الدوكى من سجنه. لكن الحراسة المضروبة حول قلعة الاميدا كانت من الشدة بحيث لم تدع مجالا للفرار. فعاد خائبا الى مقره وبعد ذلك بقليل اى فى ٨ يوليو (تموز) صدر اليه امر من لجنة القضاة التى اشرنا اليها سابقا بالحضور الى مدريد ليدلى امامها بافادته فحضر فى ١٥ منه واستجوب بشأن الرسائل الموجهة من جانبه الى الدوكى ويظهر ان اللجنة لم تر موجبا لمحاكمته فلم تودعه السجن لكنها عينت له منذ بلوغه مدريد حارسا يتبعه انى ذهب. فآلمه هذا التضييق ورفع اليها طلبا يلتمس حرية التجول بلا حارس ليتمكن من ملاحقة دعواه بشأن برج خوان اباد. وأخيرا اصدرت اللجنة امرها فى ٦ سبتمبر (ايلول) من تلك السنة بمنحه الحرية على ان لا يغادر مدريد وان يخضع لما يحكم به عليه بعد تقديمه الضمانة اللازمة. ولم يلبث ان ابلغ خبر فوزه فى دعوى برج خوان اباد بحيث اصبح من حقه ان يتلقب بسيد تلك البلدة لكن تكاتف المفترين على مولاه السابق الدوكى دى اوصونا كان يحز فى نفسه ويزيده الما عجزه عن مد يد المساعدة اليه .

فى ٢١ اكتوبر (تشرين الاول) من سنة ١٦٢١ شهدت مدريد اعدام ضون رودريغو كالديرون. فنظم كيبيدو بهذه المناسبة

قصيدتين مشهورتين. وفى السنة نفسها صدر مطبوعا كتابه «فارس الكلابة» وبينما كان قد بدأ الاطمئنان يعود الى نفسه اذا به يفاجأ فى ٤ يناير (كانون الثانى) سنة ١٦٢٢ بأمر جديد من اللجنة ـ تنفيذا للارادة الملكية ـ بنفيه الى قريته «برج خوان اباد» وحظر عليه الخروج منها دون اذن خاص.

عاد الى قريته لكنه لم يلبث ان اصيب بالحمى المتقطعة. وساءت حاله حيث لا اطباء هنالك ولا صيدليات. وادى به الامر الى ان كتب فى فاتح شهر مارس (اذار) الى رئيس مجلس قشتالة يلتمس منه اذنا بالذهاب الى مدريد او الى مدينة «بيا نوبيا دى لوس انفانطيس» طلبا للاستشفاء فجاءه الاذن فى ٩ من الشهر نفسه بالذهاب الى هذه المدينة. فقدمها ولم تمض عليه سوى ايام قليلة حتى استرجع صحته ونشاطه بفضل اطبائها ومناخها الطيب وما ان رجع الى برج خوان اباد وذلك فى ٦ ابريل (نيسان) التالى حتى بعث بمؤلفه الجديد «حلم الموت» الى السيدة «ضونيا ميرينا ريكيثا» وهو تحريف ضونيا ماريا انريكيث احدى وصيفات الملكة ومن اجمل نساء عصرها مع رسالة تقدمة مستشفعا.

وعقب هذا التأليف عدد وافر من القصائد المختلفة المواضيع بالرغم عن ان حالته المالية كانت عسيرة والبعد عن العاصمة فى تلك الاوقات الحرجة يحز فى نفسه. واخيرا فى ٣٠ مايو (ايار) دفع له امين املاكه ٩.٢٣٤ «بليونا» من ريع اقطاعه، اما من املاكه الخاصة وبيده من ريعها ما يربو على ٥٠.٠٠٠ بليون فلم يسلمه شيئا البتة. فجدد الطلب الى مجلس قشتالة ليسمح له بالمجيء الى العاصمة ليتابع فيها دعواه واخيرا سمح له بالمجيء فقدمها

فى ٦ يونيو (حزيران) وجدد الطلب واضاف اليه شكاوى جديدة على سكان البلدة الذين اختلسوا قدرا كبيرا من القمح والمال

وهذه الاجراءات القضائية اجبرته على البقاء فى مدريد وتلك اقصى رغباته، فمكث فيها وما عتم ان شهد كثيرا من الحوادث الجليلة التى اغنى بها مؤلفه «الاخبار الكبرى لحوادث خمسة عشر يوما» ومن جملة هذه الحوادث مقتل الكوندى بياء مدينة، فى ٢١ اغسطس (آب) وما حام حول مقتله من الاشاعات، وفى ٢٢ منه اصدرت لجنة القضاة المكلفة بمحاكمة الدوكى دى اوثيدا والدوكى دى اوصونا حكمهما على الاول بدفع غرامة قدرها ٢٠,٠٠٠ دكة وبالغريب ثمانية اعوام على بعد عشرين فرسخا عن مدريد، اما الدوكى دى اوصونا الذى ابى ان يدافع عن نفسه امام القضاة فقد استمر التحقيق جاريا فى قضيته بينما كانت ترد الانباء من نابولى مشيرة باستفحال الخطر فى البحر على الاسطول والممتلكات الاسبانية منذ عزل الدوكى عن منصب نيابة الملك هنالك.

اما كيبيدو فحكم ببراءته لكنه اجبر على البقاء بعيدا عن مدريد عشرة فراسخ على الاقل فاضطر الى العودة الى برج خوان آباد وفى ٢٣ مارس (اذار) صدر امر جديد بالغاء ذلك التحظير من دخول مدريد بعد ان توسط فى الغائه الوزير اوليفارس. فقدم العاصمة وبما ان حالته المالية كانت قد ساءت كثيرا طلب من الملك ان يأمر له بمكافأة يقبضها فى اسبانيا عوضا عن التى كان يتقاضاها فى ايطاليا، لكنه لم يستجب طلبه .

وقبل وصوله الى العاصمة بشهر ونصف صدر المرسوم الملكى بشأن تبديل الازياء ، وكان القصد منه محاربة البذخ

المفرط الذى كان يؤدى بكثير من الثروات، واستبشر الناس خيرا بما جاء فى المرسوم من وعد باصلاح اخطاء العهد الماضى ، وأعجب كيبيدو بـه ورأى الفرصـة سانحة للتقرب من اوليفارس، فوضع رسالة شعرية فى تقريظ ذلـك المرسوم، وأغـدق المديح للملك ولوزيره وبلغت الرسالة يدى الكوندى اوليفـاريس فاستـدعى كيبيدو ليعرب له عن رضاه، ومنذئذ انفتحت امامه من جديد ابواب القصر .

وصادف مجيء كيبيدو الى مدريد وصول ولى عهد انكلترا، كرلوس استوار الذى قدم عازما على الزواج بالاميرة ماريا، وقضى خمسة اشهر فى اسبانيا اقيمت خلالها حفلات لم يعهد لهـا مثيل سابق، وتبارى الكتاب والشعراء فى وصفها، ومن يقرأ اليوم وصف تلك الاحتفالات يخيل اليه انها اقيمت فى عالم الجن لما امتازت به من فخفخة وترف وجود... ولم يكن كيبيدو ليقف فى المؤخره . فنظم بدوره قصائد عديدة فى وصف تلك الحفلات والمهـرجانات والالعاب الرياضية الى غير ذلك من انواع اللهو التى أقيمت .

وبمناسبة وصف هذه المهرجانات طـارت الشرارة الاولى التى اشعلت نار التهاجى بينه وبين الشاعر ضون خوان رويث دى الاركون .

وكان كيبيدو قد كتب وهو فى السجن فى قلعة اوكليس الى الدوكى دى اوصونا معترفا بأن بين يديه ثمانية آلاف واربعمائة بليون له وانه مستعد ان يدفعها له متى طلبها. وسقطت الرسالة بين يدى اللجنة التى كانت تحاكم الدوكى فأمرت الكاتب بتسليم هذه الكمية. فاحتج كيبيدو بأنه دفع لابن الدوكى قسما من تلك

الكمية واشترى له جوهرة بثلاثة آلاف بليون. وانه لا بد من تصفية الحساب لمعرفة ما بقى فى ذمته من تلك الكمية. لكن اللجنة رفضت احتجاجه وامرته بدفع المبلغ كله. واجلته شهرا لذلك، وبين بعد ذلك انه لم يبق فى ذمته شىء من ذلك المال لكن اللجنة اصرت على قرارها. ولما لم يكن لديه ما يدفعه اضطر الى رهن حرام مرصع بثلاثة وثمانين حجرا كريما وبزة رسمية من بزات اخوية شنتياقب. ولم يتمكن من استرجاعها الا فى سنة ١٦٣١ .

وأقبلت سنة ١٦٢٤ وكانت المفاوضات لزواج ولى عهد انكلترا بالاميرة الاسبانية قد انقطعت، واعتلى الامير كرلوس استوار العرش وفى قلبه حقد كامن على اسبانيا، فبعث بحملة على مدينة قادس، لكن القوات الاسبانية ردت الغزاة بعد ان افقدتهم الف محارب وثلاثين مركبا .

واحب الملك ان يطلع اذاك بنفسه على التحصينات التى امر بانشائها على الشاطىء الجنوبى الغربى اتقاء لمحاولات انتقامية جديدة .

فتنظم موكب فخم خرج من مدريد فى ٨ فبراير سنة ١٦٢٤ وكيبيدو من جملة من ضمهم ذلك الموكب . واقيمت احتفالات ومهرجانات فخمة فى المدن والقرى التى مر بها الركب الملكى. وعرج على بلدة «برج خوان آباد» وبات الملك ليلة فى دار كيبيدو وفى ٢٨ منه دخل الركب مدينة اشبيلية وبعد ايام انتقل الى مدينة سان لوكار دى باراميدا وبعد تفتيش الحصون والشاطىء الاندلسى تفتيشا دقيقا عاد الملك وحاشيته الى مدريد فدخلها فى ١٩ ابريل (نيسان) .

وبعد ذلك بنيف وشهر اى فى ٣١ مايو توفي فى سجن قلعة هناريس الدوكى دى اوثيدا. وفى ٢٥ سبتمبر من السنة نفسها فجع كيبيدو بوفاة صديقه ومولاه الدوكى دى اوصونا الذى توفى فى السجن ايضا ، ففاضت قريحته بخمس مراثى تعتبر من اجود ما خلفه من الشعر ، ولا عجب فان رثاءه لاوصونا صدر عن قلب مكلوم لانه كان يضمر له حبا شديدا واخلاصا كبيرا. ولم يقف وفاؤه له عند هذا الحد بل وضع فيما بعد كتابا لاحياء ذكراه سماه «اقوال واعمال سعادة الدوكى دى اوصونا فى فلانديس وصقلية ونابولى» ، لكن هذا الكتاب قد ضاع قبل ان يطبع اثناء الاضطهادات الاخيرة التى منى بها كيبيدو.

الفصل السابع

كيبيدو صديق الكوندى دى اوليفاريس ـ اعراضه عن المناصب ـ فى طريق الزواج

بعد ان انفتحت امام كيبيدو ابواب القصر الملكى تبدلت حاله ونشأت علاقات بينه وبين الكثيرين من مفكرى عصره نخص بالذكر منهم «خوان يعقوب شفليت» (١٥٨٨ ـ ١٦٦٠) طبيب الاميرة ايزابيل كلارا اوخنيا واصله من مدينة بيزانسون ، والعالم البندقى لورنثو فاندير هامين دى ليون الذى كان بارعا فى اللغتين اليونانية واللاتينية فضلا عن براعته فى فن القريض وقد الف عدة كتب أهدى أحدها الى كيبيدو، وضون انطونيو هورتادو دى مندوثا امين سر الملك ومؤلف بضع مسرحيات، وكثيرين غيرهم . وكان يتبادل واياهم الرسائل .

ويعتبر هذا الطور الذى يمتد بين نفيه للمرة لاولى الى قرية «برج وان آباد» ونفيه اليها للمرة الثانية أهنأ وأسعد اطوار حياته الادبية. ففى البلاط انفسح امامه المجال ليبرز ما اتصف به من عبقرية ونبوغ .

وكان حتئذ لم يحض فى ميدان التاليف المسرحى، فعزم الآن على خوضه، وان لم يكن كثير الميل لهذا النوع. ولعله أقبل عليه فى هذه المرحلة نزولا عند رغبات عليا فوضع عددا كبيرا من المسرحيات القصيرة التى يتخللها الغناء والرقص لتمثل فى البلاط. وألف مسرحية عنوانها «كيف يجب ان يكون الحظى» ضمنها كثيرا من النظريات السياسية .

وفى اوائل سنة ١٦٢٦ رافق الركب الملكى الى اراغون وشهد اجتماعات المجالس النيابية فى برباستـرو ومونثون وبرشلونة. وهنالك شاهد عن كثب الصراع العنيف بين نواب الامة والسلطة الملكية المطلقة. وفى مونثون انهى مؤلفه «حكاية الحكايات» وأهداه الى صديقه «ألونصو مسيا دى ليفا» مقابل الخدمات الكثيرة التى أداهاله. والونصو هذا هو الذى شطب من «أحلام» كيبيدو باذنه سنة ١٦٢٩ المقاطع التى كان تثير ثائرة الرقابة وصدرها بتنبيه ظهر فى الطبعة التى اعدها والتى لم تر الوجود الا فى سنة ١٦٣١ وسلك الونصو المسلك نفسه مع «حكاية الحكايات» فأعد طبعة منقحة بقلم كيبيدو نفسه وظهرت بهذا الاسم الجديد «ألاعيب الطفولة وشيطنات الذكاء » .

واغتنم كل من الطباع «بدرو برخيس» والكتبى «روبرتو دوبورت» فرصة مرور كيبيدو بسرقسطة فنشرا «سياسة الله» و «تاريخ حياة الشاطر» وما كادا يخرجان الى الوجود حتى انبرت الانتقادات تنهال على اولهما. اما كيبيدو فلم يحمل نفسه مشقة الرد الا على الراهب اليسوعى الاب خوان دى بينيدا ولا شك ان «سياسة الله» من خير ما انتج الادب الاسبانى فى القرن السابع

عشر. وسنتكلم عنها مفصلا فى القسم الثانى من هذا الكتاب ونستعرض آراء كيبيدو فى السياسة والحكم .

وفى تلك السنة يضا ١٦٢٦ ظهرت طبعة جديدة من «تاريخ حياة الشاطر» فى برشلونة ونشر عددا وافرا من القصائد فى شتى المواضيع وانما اكثرها من نوع الاناشيد والقصص الشعبية وبعضها فى وصف حياة اللهو والمجون. ومنها فى الرثاء ووصف حياة العزلة. وازدادت بها شهرته التى طبقت الآفاق ولم ينس مع ذلك كله ميوله الانتقادية التى تجعله يمت بصلة النسب الادبى المتينة الى الشاعر اللاتينى جوفينال، وطالما سماه «جوفنالى» ـ كأنه خاص به ـ وحيث كان «التصنع الادبى» الذى استحدثه غونغورا يستفحل امره يوما بعد يوم وخصوصا بين سيدات العاصمة اللواتى اصبحن يرين فى استعمال التكلف الزائد فى التعبير من ميزات الثقافة تصدى لذلك كيبيدو بنقده اللاذع ووضع مؤلفين صغيرين تحت عنوان «البوصلة للسفر فى بحر الثقافة » و « المثقفة المتكلمة باللاتينية » وهما تذكران بالمسرحيتين اللتين وضعهما بعد ذلك بنحو من خمسين سنة الروائى الفرنسى الشهير موليير تحت عنوان «النساء العالمات» و «المتكلفات الموجبات للهزء» .

وفى ٢٣ مايو من سنة ١٦١٧ فارق الحياة غونغورا الحياة فى مسقط رأسه قرطبة ، وكان كيبيدو قد هجاه بقصيدة لاذعة حين غادر مدريد وختمها بقوله :

«سر مع ابليس ايها «المثقف» الحليق
الا انظروا ! ما أتعس ابليس !»

وفى تلك الآونة نفسها ظهر فى برشلونة مؤلفه «الاحلام» تحت العنوان الآتى «احلام وخطب حول حقائق كاشفة للمظالم والرذائل والخدع فى جميع مهن العالم واحواله». وكانت مطابع مدريد وبرشلونة وسرقسطة وبلنسية وميلان والبرتغال وفلانديس وفرنسا تكاد تعجز عن القيام بعبء طبع مؤلفاته لما كان عليها من الاقبال . فكانت هذه الشهرة المتزايدة وظهور «البوصلة» و «المثقفة المتكلمة باللاتينية» سببا فى ازدياد عدد خصومه ومناوئيه شأن كل عظيم يأكل الحسد قلوب منافسيه. فتصدى له الكثيرون من الكتاب والنقاد يردون على مؤلفاته ويرمونه بأبشع الاهانات والاهاجى. وكان كتابه «سياسة الله» سبب قلق بين كثيرين من رجال الحكم. ما هو ـ على حد قول احد المؤرخين ـ فانما كانت تقلقه سياسة الكوندى دل اوليفاريس التى لم يكن فيها من سياسة الله قدر حبة خردل .

فوضع اذاك مسرحية ذات ثلاث فصول عنوانها «كيف يجب ان يكون الحظى» . قصد منها ان يدل الملك على حقوقه وان ينبه الى خطر تسليم مقاليد الحكم الى الحظى او الوزير تسليما تاما لكن الدرس الذى اراده لم يأت بنتيجة لان فيليب الرابع كان يزداد استسلاما لوزيره الى ان اصبح هذا فى آخر الامر هو الحاكم بأمره دون ان يبقى للملك سوى اللقب .

وفى المدة نفسها وضع مسرحية أخرى عنوانها «بيرو باثكيت دى اسكاميا» لم يبق منها الا قسم من الفصل الاول . وهى تدور حول حياة لص شهير سفاك دماء اسمه بيرو باثكيث دى اسكاميا مات على اعواد المشنقة فى اشبيلية حوالى سنة ١٦٠٤

وفى اواخر سنة ١٦٢٧ وضع مؤلفا جديدا عنوانه «مذكرة فى الدفاع عن شفاعة شنتياقب» وسبب ذلك انه بدأت فى اسبانيا سنة ١٦١٧ حملة فى سبيل اعلان القديسة تيريسة دى خيسوس شفيعة اسبانيا الثانية الى جانب شنتياقب . وتجددت الحملة سنة ١٦٢٢ بعد تطويبها قديسة. فانقسمت الآراء واشترك بالجدل العلماء واللاهوتيون والادباء وكل حملة الاقلام وتداخلت السلطات الدينية والمدنية ورفع الامر الى البابا نفسه. وكان كيبيدو من مؤيدى شفاعة شنتياقب. ولذلك وضع مؤلفه المذكور الذى طبع فى مدريد فى اواخر فبراير سنة ١٦٢٨ وقد قوبل باعجاب كبير. وانهالت عليه التهانى من كل فج وصوب. وعزز الكتاب بقصيدة عارض فيها شفاعة القديسة تيريسة فرد عليه اخصامه بالاهاجى بدلا من الحجج.

واختلى كيبيدو فى داره فى «برج خوان اباد» ووضع مؤلفا جديدا فى الموضوع اسماه «حسامه فى سبيل شنتياقب» موجها الى الملك مع رسالة الى الكوندى دى اوليفاريس. وبعث بالكتاب والرسالة الى الدكتور البارو دى بييغاس الذى كانت تربطه به قرابة بعيدة وكان يظهر لكاتبنا تودادا كبيرا لكنه كان فى باطنه يضمر له بغضا شديدا وقد دل على ذلك بتصرفه اذ انه ارجع اليه المخطوطة دون ان يفتحها مشيرا عليه بأنه ليس من المناسب رفعها الى الملك .

استلم كيبيدو المخطوطة فحملها وجاء بها الى مدريد. واذاك اتفق اوليفاريس والفارو دى بييغاس على زجه فى السجن ونفيه ستة اشهر الى برج خوان آباد محتجين عليه بأن توجيهه مؤلفه

«مذكرة فى الدفاع عن شفاعة شنتياقب» الى مجلس قشتالة كان عصيانا كبيرالانه يجعل بذلك اعضاء المجلس المذكور هم القائمين على حماية القانون ، وبأن كتابه «سياسة الله» بالرغم عن تاريخ تقدمته المتأخر انما القصد منه القذف بالحكومة القائمة، وبأنه ما زال يكتب اهاجى لاذعة بحق سوء ادارة شؤون الدولة وما يشبه من فاقة ومجاعة على العموم .

فعاد كاتبنا الى قريته مكسور الفؤاد خائبا. ومن ثم انتقل الى بلدة بيانويبا دى لوس انفانطيس حيث استلم من صديقه خوان رويث كالديرون رسالة بتاريخ فاتح اغسطس من سنة ١٦٢٨ يشرح له فيها سبب نفيه وهذا نصها: «لقد كتبت اليك فى البريد السابق. وعليه فان ما يخطر لى ان اقوله لك الا ن هو ان تكون حضرتك فرحا وسليا لوجودك خارج هذه المدينة لانه ليس فيها الا احداث وشكوك دون ان يكون فيها خبز او اى شىء آخر. «ان محاولة اقصائك عنها لم تكن الا من تدبير الكوندى (اوليفاريس) وبييغاس اذ ظهر لهما انه ليس ثمة من حيلة اخرى سوى هذه لمنع حضرتك من الكتابة ما دامت المواضيع لها كثيرة جدا. ولذلك اتخذوا حجة القول بأن حضرتك جعلت فى كتابك اعضاء المجلس الملكى القائمين على حماية القانون وبأنك انما اردت فى كتابك الآخر « حكم المسيح » القذف فى الحكومة الحاضرة وبأنك لا تبرح تسلك هذا المسلك. وعليه قررا ابعاد حضرتك من هنا فما عليك الا ان تقبل الامر كما هو فى الواقع وان تفرح بأن كل من فى العاصمة يعترفون على رؤوس الاشهاد بأن حضرتك قد ظلمت» .

استكن كيبيدو الى هذه الحياة الهادئة التى طالما حنت اليها نفسه فى اعماقها لانها تحرره من قيود المجتمع وتفسح امامه المجال للانصراف الى شؤون الفكر فعاد الى الدرس والتاليف فى عزلته ووضع مؤلفا عنوانه «خطاب جميع الابالسة او الجحيم المصلحة» فضلا عن عدد كبير من القصائد فى مختلف المواضيع ، ويتجلى هدوء نفسه ولوتياحه الى هذه الحياة البعيدة عن صخب المدن وضوضائها فى رسالة كتبها باللاتينية فى ١٢ سبتمبر الى لوقاس فان طورى Lucas Van Torre وفيها يقول : «ان الايام تنساب هنا على مهل، والساعات تفر دون ان نشعر بها. ان الماكولات غزيرة ورخيصة ونحن ننعم بملذات الطبيعة دون حرج ولا بدل. لا نعرف شهوة الجسم ونجهل التجارب والخطايا. لكنى وسط هذه القلة لست بالفقير وانما تجردت من كل ما هو دنس. ان فقد هذه الادران ليس بالخسارة بل كسبا وافرا» وفى مقطع آخر يقول : «لقد حكم القضاة علي بالنفي من العاصمة وحكمت عليهم بالبقاء فيها».

* * *

عاد من بيانويفا دى لوس انفانطيس الى قريته واقام فيها حتى اوائل السنة التالية اذ ابلغ انه سمح له بالعودة الى مدريد. فقدمها حالا فى شهر يناير (كانون الثانى) من سنة ١٦٢٩ ولئلا يزيد ضغثا على ابالة اعرض عن طبع كتاب «سيفه فى سبيل شنتياقب» واكتفى برفع رسالة الى البابا اوربانو الثامن الذى اعاد القديم الى قدمه.

وكانت مؤلفات ضون فرنسيسكو فى هذه الآونة متداولة

فى كثير من البلدان وتتهافت على طبعها مطابع فرنسا وايطاليا وفلانديس فضلا عن مطابع اسبانيا والبرتغال . ولنا على ذلك شهادة ناطقة فى ثلاث رسائل موجهة من الاديب البلجيكى الكبير خوان خاكوبو شيفليط Juan Jacobo Chifflet من بروكسيل الى رئيس اساقفة باطراس ، خوان فرنسيسكو باغنى الذى كان اذاك قاصدا رسوليا فى باريس. واولى هذه الرسائل كتبت فى ٢ يناير سنة ١٦٢٩ والثانية فى ١٨ منه والثالثة فى ٢ فبراير (شباط) .

وما كاد يرجع من منفاه حتى كانت حوانيت الوراقين فى العاصمة تعرض للبيع مؤلفه «خطاب جميع الابالسة» . وتعددت طبعاته حالا فى بقية المدن الاسبانية والبرتغالية. ولم يحف على الكوندى دى اوليفاريس مغزى الكتاب. ففكر فى حيلة جديدة لكم فم كيبيدو الذى اصبح قلمه حربة مصوبة الى قلب حظوته، ورأى اعداء الكاتب الفرصة سانحة لايغار صدر الوزير عليه. وبينما كان كيبيدو مشغولا بوضع مؤلفه الجديد «لبيب ايطاليا» المعد لتذكير الملك بخدماته فى ايطاليا كان اعداؤه ومناوئوه يسعون للايقاع به، فرفعوا شكاية بمؤلفه «خطاب جميع الابالسة» الى مجلس التفتيش فى اول شهر يوليو (تموز) من سنة ١٦٢٩ وشكاية اخرى فى ١٩ مارس من سنة ١٦٣٠ لكن كيبيدو كان له اصدقاء كثيرون تربطهم فى الوقت نفسه صلات المودة بالوزير الاول ومن جملتهم الدوكى دى مدينسيلى (مدينة سالم) الذى اصبح منذ تلك السنة صديق كاتبنا الحميم. كما ان عدد المعجبين بأدبه فى سائر انحاء البلاد الاسبانية كان كبيرا . وقد

شوهد ذلك فى السنة السابقة حيـن احتدم الجدال فى قضية «شفاعة شنتياقب». وادرك ذلك الكوندى دى اوليفاريس فرأى من الاولى استمالة كيبيدو اليه بدلا من معاداته. فغير خطته معه وتملق اليه عارضا عليه مساعدته على اعدائه، وكان يؤمل بذلك ان يكسبه الى جانبه لانه فى امس الحاجة الى قلمه السيال .

وقابل كيبيدو تودد الوزير اليه بالمثل وذلك فى رسالة مفتوحة بتاريخ اول يوليو سنة ١٦٢٩ قدم له بها مؤلفاته فراى لويس دى ليون التى طبعها كاملة للمرة الاولى فى سنة ١٦٣١ . ولم يلبث بعد ذلك ان اتم كتابه «لبيب ايطاليا او الفطن الاسبانى» واهداه الى الملك. وقد جاء الاهداء فى أنسب وقت لان كيبيدو كان يحذر ملكه من امير سابويا كـارلوس مانويل الذى طالما عادى اسبانيا وقد تحالف معها اذاك لاقتسام ميراث الدوكى دى مانطوا . وقد جاءت الحوادث المقبلة مصدقة لتحذير كيبيدو لان كارلوس مانويل لم يلبث ان تخلى عن اسبانيا وتحالف مع عدوتها فرنسا.

لكن سياسة اوليفاريس الداخلية وخاصة تدابيره المالية ما عتمت ان اثارت الخواطر عليه وانتشرت فى انحاء البلاد مناشير عديدة كلها قدح فى تلك التدابير فما كان من الوزير الا ان التجأ الى كيبيدو للدفاع عنه فجرد قلمه وكتب فى اكتوبر من سنة ١٦٢٩ رسالة عنوانها «أبكم الهذر» ودفع المخطوطة الـى الاب هرناندو دى سالازار صديق اوليفاريس وذاك ارسلها سرا الى المطبعة. وبينما كانت تطبع ركب صاحبنا عربة اقلته الى بلدة بيانويبا دى لوس انفانطيس ولما عاد الى مدريد فى اوائل سنة ١٦٣٠ كانت الايدى تتداول الكتاب . وقد احدث صدوره ضجة

كبيرة وتضاربت فيه الآراء لكنه افحم اعداء الوزير وفت من عضدهم فسكتوا عن نقده ومهاجمته. وكان الكتاب يشير من طرف خفي بنوع خاص الى ضون ماتيو دى ليسون وبييدما رئيس بلدية غرناطة الذى كان اشد اعداء الوزير هجاء له. فلم يسكت على تعريض كيبيدو به وتناول القلم ووضع رسالة عنوانها «الجواب المفحم فى الرد على ابكم الهذر» من وضع المأذونين «كل شيء يعرف» «ويعرف كل شيء» وحمل فيها حملة شعواء على كيبيدو والصق به تهما شنيعة كلها محض كذب وافتراء لكن اعداءه اغتنموا الفرصة واوصلوا نسخة منها الى مجلس التفتيش ليحقق فى تلك التهم بقصد الايقاع به. لكن المجلس لما احس بتداخل الوزير فى الامر دفن القضية فى عالم النسيان. ومنذئذ انفتحت امامه ابواب دار الوزير لكنه لم يحاول الكسب من هذه الحظوة لانه لم تبق له آمال سياسية وجل همه ان ينصرف الى الادب بهدوء وطمأنينة. فقد ألقت عليه الحوادث الماضية امثولة بليغة ولم تبق له رغبة فى المغامرات وكما فعل منذ قبل بمؤلفات فراى لويس دى ليون اعد الآن للطبع مؤلفات الشاعر فرنسيسكو دى لا طورى التى اكتشفها صدفة. وفى اواسط اكتوبر من سنة ١٦٣١ عرضت للبيع.

وفى ٢ مايو من هذه السنة باع بعض حقوقه فى قرية «برج خوان أباد» بأحد عشر ألف بليون تمكن بها من افتكاك الجواهر التى كان قد اودعها بين يدى «مجلس الاخويات» منذ محاكمة الدوكى دى اوصونا. وفى التاسع والعشرين من الشهر نفسه عقد مصالحة مع بلدية «برج خوان أباد» بشأن الحسابات المعلقة

ووضع بها حدا للاثنتين وعشرين دعوى التى قامت بينه وبين سكانها .

انتهت مشاغله القضائية بعد هذه المصالحة واصبح يتردد على البلاط خلى البال ، واذاك دعاه صديقه ضون انطونيو دى مندوثا ليضعا معا مسرحية تمثل ليلة عيد سان خوان (القديس يوحنا) احتفالا بالملك والملكة، فلبى الدعوة ووضعا المسرحية فى نهار واحد بعنوان «كل من ازداد افكا ازداد ربحا» . ويقال ان السيدات اللواتى حضرن تمثيل المسرحية التى ضاعت فيما بعد خرجن مغتاظات من نظريات كيبيدو فى الزواج وآلين على انفسهن ان ينتقمن منه بتزويجه . وانما يروى هذا على وجه الاحتمال فحسب، والواقع هو ان كيبيدو وقد بلغ الحادية والخمسين من عمره كان قد اظهر فى مختلف المناسبات ممانعة قوية فى الزواج. ونظم عدة قصائد ومنها ما نالت شهرة واسعة فنقلت الى عدة لغات أجنبية فى ذم الزواج وحياة المتزوجين والتهكم عليهم. وكان قد صمم العزم على البقاء اعزب طول العمر.

لكن الحالة تبدلت بعد ان تداخلت فى الامر زوجة الكوندى دى اوليفاريس وألحت عليه بوجوب اتخاذه زوجة له والخروج من حياة العزوبة بعد ان بلغ سن الكهولة. فلم يكن بوسعه ان يعصى رغباتها واجابها برسالة طويلة يذكر فيها ما يحب ان يتوفر من شروط فى شريكة حياته .

ولا بد لنا ان نشير هنا الى ان كيبيدو كان يعيش مع خليلة له تسمى «لا ليدسما» وهى التى يشير اليها فى بعض قصائده باسم «فلوريس» . وقد رزق منها اولادا حسب قول بعض المؤرخين

وكانت خليلته هذه فى أول أمرها ممثلة. ويظهر ان علاقة كاتبنا بها ترجع الى سنة ١٦٢٠ على اثر عودته من ايطاليا. وطالما اتخذ اعداؤه هذه العلاقات مرمى لسهامهم، واليها يشير الشاعر خوان رويث دى ألاركون ـ الذى نشبت فيما بعد بينه وبين كيبيدو عداوة شديدة ـ فى احدى قصائده الهجائية.

وحاصل الامر ان كيبيدو عقد النية على الزواج فكان لا بد من البحث عن العروس وقد وجدها له صديقه الدوكى دى مدينسيلى فهى ضونيا اسبرانثا دى مندوثا سيدة بلدة ثيطينا من ارفع اريستوقراطية اراغون.

وفى ٣١ يناير من سنة ١٦٣٢ وكل كيبيدو صديقه الدوكى المذكور ليوقع باسمه عقد الزواج حالما. يصل الاذن البابوى باستمراره على التمتع بريعة الكنسى بالرغم عن تزوجه بأرملة.

* * *

ولنرجع الآن الى علاقاته بالكوندى دى اوليفاريس، فانه بعد ظهور «الجواب المفحم» عهد اليه بتأليف كتاب جديد وشرع كيبيدو بكتابته وارسل الى الوزير الكراريس الاولى. ولما انقضى اكثر من سنة دون ان يعود اوليفاريس الى مفاتحته بالموضوع ظن كيبيدو انه اهمل المشروع فكتب اليه يسأله تلك الكراريس ليمزقها فأجابه أوليفاريس بأنه لم يزل راغبا فيه لكن مشاغل الدولة العظمى شغلته تلك المدة عن التفكير بالامر، ورجاه ان يواصل وضع الكتاب. ونحن نجهل اى كتاب هو لان المعلومات التى اكتشفت حتى اليوم لم تسمح بعد بمعرفته والثابت هو انه اصبح منذئذ صديقا حميما للوزير الذى فتح امامه ابواب

داره على مصراعيها. واحب ان يساعده فرجاه اولا ان يصحح بعض مؤلفاته التى لاقت تحريما من جانب مجلس التفتيش ، فكلف كيبيدو بذلك صديقه مسيا دى ليفا. وهكذا ظهرت فى مدريد فى اواخر سنة ١٦٣١ «الاحلام» فى حلة جديدة وتحت هذا العنوان الجديد «ألاعيب الصبا وشيطنات الذكاء» . وقد ضمت الطبعة الجديدة زيادة على ذلك عدة مؤلفات اخرى من جملتها «مرجل بدرو غوتيرو» و «المتكملة باللاتينية المثقفة» و «كتاب جميع الاشياء» وغيرها.

لكن اعداء كيبيدو كانوا يجدون فى كل حركاته مطعنا . فها هم الآن بعد ظهور هذه الطبعة المنقحة يأخذون ذلك حجة للتعريض به زاعمين انه يتظاهر بالتوبة سعيا وراء منافعه.

والحق يقال ان اوليفاريس فتح له ذراعيه، واراد ان يرفع من قدره، فعينه فى ١٧ مارس من سنة ١٦٣٢ كاتبا للملك. لكن كيبيدو كان قد سئم السياسة وتقلباتها. فرضى من المنصب باسمه دون ان يطمح الى شغله شغلا فعليا، وعرضت عليه رتبة السفارة فى جنوة فرفضها. وذلك انه اصبح يرغب فى الحياة لنفسه، منقطعا الى التفكير والتأمل والمطالعة والتاليف بعيدا عن متاعب السياسة وآلامها .

BIBLIOTECA NACIONAL
ARGENTINA

الفصل الثامن

اتصال كيبيدو بالدوكى دى مدينسلى ـ زواجه ـ عزلته فى برج خوان آباد

فى اواخر سنة ١٦٢٩ اتصل كيبيدو بالدوكى دى مدينسيلى وتوطدت بينهما روابط الصداقة التى لم يفصم عراها سوى موت كاتبنا الكبير، فقد تآلفت روحاهما وتآخيا وسارا جنبا الى جنب فى السراء والضراء منذ تلك السنة حتى وفاة كيبيدو . واول رسالة وجهها الى الدوكى ترجع الى اوائل سنة ١٦٣٠ وفيها يوصيه بالكاتب البرتغالى فرنسيسكو مارتينث دى مسكيتا ليساعده على طبع أحد مؤلفاته . واولى رسائل الدوكى الى كيبيدو تحمل تاريخ ١١ سبتمبر من تلك السنة . وهى صادرة عن بلدة مدينة وقد جاء فيها «انك الشخص الوحيد الذى يؤلمنى فراقه» .

وكان الدوكى دى مدينسلى من ابرز رجال عصره فاضاف الى نبل محتده اخلاقا عالية وكرما حاتميا وعلما واسعا فكان يجيد اللاتينية واليونانية والعبرانية فضلا عن علو كعبه فى اللاهوت

والعلوم الدينية والتاريخ الدينى. وفى سنة ١٦٢٣ تزوج بضوبيا ماريا لويسا انريكيث دى ريبيرا (شقيقة زوجة الدوكى دى اوصونا). وشغل منصب نيابة الملك فى بلنسية وقائد قوات البحر المحيط والشاطىء الاندلسى فأظهر مهارة وحزما فى تصريف امور الحكم والقيادة . وتوفى فى «بويرطو دى سانطا ماريا» فى ٧ مارس من سنة ١٦٧١

ويتجلى من اولى الرسائل المتبادلة بينه وبين كيبيدو ان هذا كان يقضى له فى مدريد ما يكلفه به من اشغال ومهام ويوافيه بأخبار العاصمة. ومنذ سنة ١٦٣٠ كانت الصداقة مستحكمة بينهما الى حد أن كل من كان يبغى الحصول على شىء من الدوكى كان يطلب وساطة كيبيدو . وفى ٢ سبتمبر من سنة ١٦٣١ اهداه هذا ترجمة كتاب «الرومولو» الذى وضعه باللغة الايطالية صديقة المركيس فرجيليو مالفيزى الذى كان اذاك يشغل فى البلاط الملكى الاسبانى منصب «مؤرخ الملك» مكافأة له على خدماته العديدة لاسبانيا .

وفى السنة نفسها ترجم تسعين رسالة من رسائل الفيلسوف سينيكا وعلق عليها. لكنه لم يحفظ منها سوى احدى عشرة رسالة. ووضع «حياة ماركو برتو» . وفوق هذا كله وضع فى تلك السنة عددا كبيرا من المؤلفات الصغيرة ونظم قدرا لا يستهان به من القصائد .

ومع هذا كله يظهر انه سئم حياة البلاط فاغتنم فرصة الرحلة الملكية الى بلنسية وبرشلونة فى ٢ ابريل من السنة التالية وامتطى صهوة فرسه المسماة «اسكوطو» وقصد قريته

«برج خوان أباد» لعله يظفر بتحصيل شيء مما له عند اهلها من حقوق وديون . لكنه عاد بخفى حنين وقد وصف اخفاقه فى قصيدة رائعة بعث بها الى احد اصحابه .

وعند عودته سره ان يعلم ان الدوكى دى مدينسيلى الذى رافق الملك فى رحلته المشار اليها سابقا زار ضونيا اسبيرانثا دى مندوثا وان المعاملات للعقد له عليها تسير فى طريق النجاح .

والآن وقد انصرف كاتبنا الى مطالعة الكتب المقدسة وظهر نبوغه فى حياة التصوف وسير القديسين وابتعد عن كل مطمح سياسى خاص وعزم على ترجمة «المدخل الى حياة التقوى» للقديس فرنسيسكو دى سال يخيل الينا ان اعداءه سيتركونه يعيش بسلام . لكن الامر جاء خلاف ذلك فان الرواج الكبير الذى صادفه كتابه «سياسة الله» وبقية كتبه وتعيينه كاتبا للملك والنفوذ الذى كان يحسب انه يتمتع به فى القصر الملكى والحقد الذى اثاره بين اعداءه ما دعوه بتوبته . كل ذلك اهاج الاحقاد والضغائن عليه وتألب أخصامه على هجائه والقدح فيه . ومما زادهم هياجا وغضبا ان كيبيدو نفسه طلب من مجلس التفتيش ان يجمع من مؤلفاته ما لا يوافق على نشرها وانه يقول فى مقدمة طبعة جديدة لمؤلفاته انه «ينشرها الآن منقحة دون ان تفقد ظرافتها وانما هى ظرافة محتشمة لان حذف ما يخل بالحشمة لا يحط مما يرضى بل يحرره» . وحقيقة الامر هى ان الحسد كان يأكل قلوب اخصامه، فلم يكن لهم بد من ان يرموه بسهام قدحهم. وهكذا لم يلبث ان اظهر كتيب عنوانه «تقريظ حلم الموت» او «زيارة النكت» حمل فيه مؤلفه ـ الذى لم يظهر اسمه ـ حملة شعواء على كيبيدو

وكال له من الشتائم أقبحها ومن الافتراءات أسفلها ومن التهم أشنعها . لكن هذا الهجاء على بذاءته ليعد بردا وسلاما اذا قيس بالقصيدة التى هجاه بها فى الآونة نفسها الشاعر المسرحى رويث دى ألاركون . وفى تلك القصيدة من الاهاجى البذيئة ما يندى الجبين ، فضلا عن التهم الكاذبة التى تلصقها بكيبيدو .

انتشرت القصيدة بدون توقيع لكن كيبيدو لم يلبث ان اكتشف اسم صاحبها فجرد قلمه الحاد الذى لا يعرف صنوا فى الهجاء ورد على رويث دى ألاركون بقصيدة غاية فى الفحش والتهكم . وكما ان ألاركون اتخذ فى قصيدته كلمة «ذو الرجل العرجاء» لازمة ختم بها كل مقاطعها ، تعريضا بعرج كيبيدو ، اتخذ هذا لازمة كلمة «ابو حدباء» تعريضا بالاركون الذى كان مصابا بحدب فى ظهره .

اما قائد الحملة على كيبيدو فى هذا العهد فهو الدكتور خوان بيريث دى مونطلبان نجل الطباع الونصو بيريث الذى طبع على نفقته سنة ١٦٢٦ «سياسة الله» واننا نجده سنة ١٦٣٠ يوقد على كاتبنا نار السعاية سرا يعاونه فى ذلك عدد من الكتاب . وفى السنة نفسها نجد ضون لويس باتشيكو دى ناربايث (ذلك الذى غلبه كيبيدو فى البراز منذ سنوات على اثر المناقشة فى احد مؤلفاته حول ذلك الفن فى اكادمية رئيس مجلس قشتالة) يقدم الى مجلس التفتيش مذكرة يحمل فيها على «سياسة الله» و «حياة الشاطر» و «حلم يوم الحشر» وغيرها من مؤلفات كيبيدو

فنحن اذا امام حملة منظمة تالب فيها عدد كبير من المتادبين

والكويتبين على نابغة عصره ليضايقوه ويحطوا من قدره ولكن اين الثريا من الثرى ؟

وأغرب ما فى الامر ان الدكتور خوان بيريث دى مونطلبان نشر فى سنة ١٦٣٢ مؤلفا عنوانه «للجميع ـ امثلة اخلاقية» سرد فيه مؤلفات كبار ادباء مدريد وحشر بينهم اسم كيبيدو مع غير قليل من التقريظ وذكر له اسماء ثمانية عشر مؤلفا. ونحن لا نعلم بالضبط قصده من هذا التضاد ! هل كان يرمى بذلك الى مد يد المصالحة الى كيبيدو ام الى التهكم منه. ومهما يكن من امره فان كيبيدو لم يعبأ بهذا التقريظ وسار فى طريقه فوضع تحت عنوان «لا بيرينولا ـ الى الدكتور خوان بيريث دى مونطلبان» اشهر هجاء عرفه القرن السابع عشر، ولم يقتصر فيه على هجاء بيريث دى مونطلبان ونقد كتابه «للجميع ـ امثلة اخلاقية» بل شن الغارة على كثيرين غيره من الادباء الممالئين له فى الحملة عليه . وقد احدث مؤلف كيبيدو «لا بيرينولا» ضجة كبيرة فى الاوساط الادبية وهو وان لم يطبع فقد انتشر مخطوطا انتشارا كبيرا. ورد عليه بيريث دى مونطلبان بمؤلف آخر يدعى «الخرطوم» لكنه لم يلق اى رواج. وتصدى آخرون من انصاره للرد على كيبيدو وقابلهم انصار هذا بالمثل وسودت كمية وافرة من الصحائف فى هذه المناقضة وتوجت هذه الاهاجى بأربعة ابيات من الشعر منسوبة الى كيبيدو لم تلبث ان انتشرت فى اسبانيا كلها وما زالت تتردد على ألسنة العامة حتى اليوم ومضمنها ما يأتى :

«لقب الدكتور ، أنت انتحلته

واسم «مونطلبان» ليس لك

«فاذا نزع منك لقب «ضون»

لم يبق منك سوى «خوان بيريث» (١)

لكن اعداء كيبيدو لم يلبثوا ان انتقموا منه كما سنرى فيما بعد. وكأنه قد ادرك عزمهم على الانتقام فأراد ان يتأهب لمجابهتهم فتصدى لجمع مؤلفاته المبعثرة واعلن فى مقدمة المجموعة ان بعض الطباعين نسبوا اليه مؤلفات هو برىء منها وانه لا يعترف الا بهذه التى سيطبعها الآن مجموعة . ولما استقر عزمه على هذا المشروع وذلك فى اوائل ١٦٣٣ بدأ بالعمل بنشاط كبير . فتناول كتابه المنشور سنة ١٦٣٠ تحت عنوان «المذهب الاخلاقى لمعرفة المرء نفسه» ومؤلفين آخرين كان سبق له وصفهما وهما «طريقة الاستسلام لارادة الله ربنا» و «الاستعداد للموت» فنقح هذه الكتب وحورها ثم نشرها فى مجلد واحد تحت عنوان «المهد واللحد» .

وفى اوائل مارس استدعاه الدوكى دى مدينسيلى الى بلدته فخف اليه بعد ان استودع تاجرا من جنوة تربطه به صداقة كبيرة وبعض القرابة امتعة له ذات قيمة من جملتها عدة لوحات زيتية .

---

١) اسم «بيريث» من اكثر الاسماء المتداولة فى اسبانيا بحيث يستعمل فى الكلام كاستعمال العرب اسم «زيد» . واذا اريد القول بأن فلانا نكرة قيل انه «بيريث» . وكثيرا ما يضيف حاملوا هذا الاسم اليه اسما آخر من عائلة الام او الجد تمييزا لهم من غيرهم ممن يحملون الاسم نفسه واعلاء له عن مقام النكرة . فقول كيبيدو «لم يبق منك سوى خوان بيريث» يعنى انه لم يبق منك الا رجل عادى مبتذل .

وبعد ان اقام اياما قليلة فى مدينسيلى عاد الى مدريد ، وفجع عند عودته بموت شقيقته ماغدلينا التى عينته قيما لتنفيذ وصيتها. ولما فرغ من ترتيب شؤون تلك الوصية دفع كتابه «المهد واللحد» الى الرقابة ثم انسحب الى بلدة بيانويبا دى لوس انفانطيس ليمضى فيها مدة الحداد. وهنالك ترجم من اللاتينية المؤلف المنسوب الى الفيلسوف سينيكا بعنوان «فى معالجة المصائب» وعلق عليه بحواشى تفوق احيانا بقيمتها الاصل. وما ان انهى هذا الكتاب حتى شرع فى اواسط اغسطس بترجمة «المدخل الى حياة التقوى» للقديس فرنسيس دى سال الفرنسى فاتمهافى اواسط اكتوبر. وفى اواخره عاد الى مدريد ودفع الكتاب الى الرقابة وقد فوجىء حين عودته بتفليس التاجر الجنوى الذى كان استودعه بعض امتعته. وكلفه استرجاعها مشقة كبيرة.

وبعد ذلك شرع حالا بجمع مؤلفين له قديمين كتبهما فى ايام الصبا فنقحهما وترجم كتابا للفيلسوف ابيكتيتو Epic.etc ووضع سيرة حياته . واخرج من المؤلفات الثلاثة مجلدا واحدا تحت عنوان «ابيكتيتو وفوسيليديس فى الاسبانية».

وشغله عن دفعها الى المطبعة حالا امر زواجه الذى انعقد فى ٢٦ فبراير من سنة ١٦٣٤ فى بلدة سيتينا حيث كانت تعيش زوجته ضونيا اسبيرانثا دى مندوثا. ومما يستلفت النظر فى رسم الزواج انه لم يذكر فيه بين الشهود واحد من عائلة الزوجة مع انها كانت بين اهلها واقاربها . ولعل فى ذلك دلالة على عدم رضاهم عن هذا الزواج . اما كيف وقع التعارف بين الزوجين فذلك ما نجهله . وانما الذى نعرفه عن ضونيا اسبرانثا دى مندوثا هو

انها كانت اذاك ارملة قد قاربت الخمسين من سنها. وقد توفى زوجها الاول خوان فرنانديث دى هيريديا سنة ١٦١١ فى سرقسطة بعد ان رزقا ثلاثة صبيان وابنتين توفيتا قبل سنة ١٦٢٨ . اما الصبيان واكبرهم اذاك فى السادسة والعشرين من سنه فقد ساءهم زواج امهم فتألبوا مع خالهم ميغيل دى لينيان على كاتبنا ليكيدوا له وينغصوا عيشه كما ان اعداء كيبيدو لم يضيعوا الفرصة للانتقام منه. فدسوا الى زوجته بقصائد ورسائل رموه فيها بأشنع التهم وأقبح الاوصاف لكن حياة الزوجين كانت فى اول امرها هنيئة ويشهد على ذلك شروع كيبيدو وهو فى سيتينا بتأليف كتابه «الفضيلة المحاربة ضد اوبئة العالم الاربعة الحسد والعقوق والكبرياء والبخل» والجزء الاول منه «الحسد» يحمل تاريخ ٥ ابريل من سنة ١٦٣٤ . وقد استمر فى تلك البلدة حتى اواسط ذلك الشهر. لكنه اضطر للعودة الى مدريد حيث نراه فى ٤ مايو التالى لقضاء بعض الاشغال له وللدوكى دى مدينسيلى . وفى ذلك التاريخ بعث الى الدوكى برسالة يستفاد منها ان عائلة زوجته تمانع فى تسليمه مهرها وانه مستعد لرفع القضية الى المحاكم، فكتب الدوكى بالقضية الى حاكم سرقسطة ضون خوان فرنانديث دى هيريديا ـ ابن عم زوج ضونيا اسبيرانثا الاول ـ لكن رسائل الدوكى لم تجد نفعا وظلت العائلة تسوف وتماطل وتضع العراقيل الى ان ضاق كيبيدو ذرعا واهمل القضية. واننا لندرك غضبه وضيقه فيما اذا علمنا انه كان قد فقد بزواجه الثمانمائة دكة التى كان يتقاضاها سنويا بصفته من جمعية فرسان القديس يعقوب .

اما زوجته فمرضت بعد مدة وفى اواخر سنة ١٦٣٦ افترقا نهائيا دون ان يتذكر احدهما الآخر بعد ذلك اليوم وتوفيت فى بلدتها سيتينا فى ٣٠ ديسمبر من سنة ١٦٤١ بينما كان هو سجينا فى «سان مرقص دى ليون» فتكون المدة التى قضياها معا على وفاق شهرين لا غير. لكنه لم تزل تروى الى اليوم فى بلدة ستينا اخبار ـ قد لا يكون لها اساس من الصحة ـ عن ذلك الزواج المشؤوم.

ولنرجع الآن الى كيبيدو فى مدريد فانه لم تمض عليه مدة طويلة فيها حتى وافاه الدوكى دى مدينسيلى لمشاهدة الاحتفالات الفخمة التى أقيمت اذاك بمناسبة تدشين الملك قصر «البوين ريتيرو» الذى بناه الكوندى اوليفاريس واحاطه بحديقة فخمة كانت اذاك دون شك احسن حديقة فى اوربا وما زالت الى اليوم تعتبر من افخم الحدائق العامة ـ بعد ان زال منها معظم الابنية ـ

اما كيبيدو فكانت نفسه حزينة مما اصابه ومما يرى الامة عليه من تدهور وانحلال وعدم اهتمام بالجيش بينما الاموال تنفق بلا حساب فى تشييد القصور واقامة الحفلات والافراح. فغادر مدريد فى اواخر شهر اكتوبر وقصد برج خوان أباد ملجأه الوحيد بعد ان خسر الثمانمائة دكة سنوية ولم يحصل شيئا من مهر زوجته. ولم يبق له من مورد رزق سوى ما يقوى على تحصيله من ريع القرية وما تدره عليه كتبه.

اجل لقد سئم العيش واضاع كل امل فى حسن طالعه. وجره التفكير الى الاعتقاد بأن الخير فى هذا العالم يؤتى لمن يسعى وراءه لا لمن يستحقه فعلى المرء اذاً ان يجتهد لتنمية

ثروة نفسه الداخلية . وقد نظم فى هذا الموضوع ابياتا من جملة ما جاء فيها ما يلى :

«الامس كان حلما والغد سيكون ترابا

«ما قبل ساعتك بقليل لم يكن شيئا ، وما بعدها بقليل ليس الا الدخان

«ساعتك لم تبق امسك ، وغدك لما يصل .

«اليوم يمضى وهو كائن ، وها هو قد مضى بحركة تقودنى متدحرجا الى الموت

«ان الساعة والآن المعاول تتناول اجرتها من احزانى ومخاوفى لتحفر قبرى فى حياتى نفسها» .

الفصل التاسع

كيبيدو فى برج خوان آباد ـ الحرب بين اسبانيا وفرنسا ـ الرد على بيان لويس الثالث عشر ـ مذكرة للملك فيليب الرابع وسجنه فى دير القديس مرقص فى ليون

حل كيبيدو فى بلدته وانصرف كعادته الى المطالعة والتاليف ، يتخلل ذلك زيارته بين حين وآخر لصديقه ضون سانتشو دى صندوبال المقيم فى بلدة بياس دى سيغورا من اعمال جيان. والصداقة بينهما ترجع الى بضع سنوات سابقة. وقد اكتشف المؤرخ المعاصر استرانا ماربن اثنتين واربعين رسالة تبادلاها تفضى بالكثير من المعلومات عن حياة كيبيدو فى هذه الطور وتلقى نورا كبيرا على نواحى من سيرته كانت لم تزل غامضة . ويقول المؤرخ المذكور بهذا الصدد : «ان هذه الرسائل بالنظر الى صبغتها الودية الخاصة تتجلى لنا فيها نفس كيبيدو على حقيقتها . فنرى ذلك النبيل فقيرا ، لين العريكة سمحا ، نشيطا ومنفردا فى داره القروية . وان صفاء حياته وتواضعه وحبه للازهار وولعه بالصيد تغنى فى هذه الرسالة على

وتر فتان . ونشاهد فيها الحياة الهادئة العذبة التى يحياها فيلسوف من العهد القديم ذو عادات خشنة يحيا لروحه ونكتشف اخيرا الرجل الودود الناعم المنصرف بكل قواه الى الدرس بالاتفاق مع حياة الطبيعة دون ان يهمل المظهر اللطيف الذى نقلته الينا الايام » .

ومن احدى هذه الرسائل نعلم انه فى ١٣ مارس من سنة ١٦٣٥ كان يستعد للذهاب الى مدريد ليعود منها بعد خمسة عشر يوما ونقرأ فى الرسالة نفسها الخبر الآتى: «لقد اشتغلت بكل صبر فى كتاب «مسرح التاريخ» حتى انهيته وهو مؤلف كبير سياسى واخلاقى حوى علما لذيذا لما فيه من جدة وفكاهة تتخللان صرامة الموضوع» . لكن هذا المؤلف قد ضاع من جملة ما ضاع لما سجن للمرة الاخيرة وحجزت عليه اوراقه ومخطوطاته .

وصل مدريد فى ١٧ مارس وفى نفس ذلك اليوم منح رخصة بطبع «ابيكتيتو وفوسيليديس» الذى عرض للبيع فى اوائل ابريل التالى ثم اعيد طبعه فى برشلونة فى السنة نفسها. وظهرت فى الكتاب صورة المؤلف لاول مرة بريشة المصور خوان دى نورت ولم يتمكن من العودة الى قريته بالسرعة التى ارادها لاشغال ادبية استدعت بقاءه فى مدريد . ولم يلبث ان اصبح الفندق الذى حل فيه محط رحال الزائرين من عظماء وأدباء . فالقلق كان عظيما فى العاصمة بسبب ما يروج من اشاعات حول احتمال نشوب الحرب بين اسبانيا وفرنسا. واخيرا شبت نارها فى ٦ يونيو (حزيران) من سنة ١٦٣٦ اذ اشهرتها فرنسا وعلى رأس حكومتها الكردينال ريشيليو . واذاع الملك الفرنسى لويس الثالث

عشر بيانا فى بلاده حمل فيه تبعة الحرب البلاد المجاورة . فما لبث فيليب الرابع ملك اسبانيا ان دعا ادباء بلاده وكتابها الى الرد على البيان الفرنسى ، فاندفع الكتاب يسطرون اجوبة فجاء عدد منها ذا قيمة كبيرة لكن اشدها وقعا واكثرها عمقا واحدها تعبيرا الرد الذى كتبه كيبيدو تحت عنوان «رسالة الى صاحب المقام الاعلى والسلطان الاقوى لويس الثالث عشر ملك فرنسا المسيحى الاسمى» . وقد طبعت هذه الرسالة وانتشرت انتشارا كبيرا فكانت ردا مفحما على ما جاء من تهجم فى البيان الفرنسى.

لكن اعداء كيبيدو الذين لم يكن الحسد ليفارقهم حتى فى هذه المناسبة التى كان كاتبنا يؤدى فيها واجبا وطنيا اكبروا فوزه هذا فغلت نفوسهم بالضغينة وفى مقدمتهم المصور ضون خوان دى خاورغى الذى سبقت له انتقادات خفية على شاعرية كيبيدو. لكنه هذه المرة كشف القناع ووضع رسالة اسماها «مذكرة الى مولانا الملك» حمل فيها حملة شعواء على رسالة كاتبنا لكنه لم يأبه احد لرسالة خاورغى . وظل القوم معجبين برد كيبيدو فازداد خاورغى حنقا على كاتبنا وعوضا عن ان يقلع عن غيه تمادى فيه ونظم مسرحية ذات ثلاثة فصول عنوانها «المنفرد» حاول ان ينال فيها من قدر كتاب كيبيدو «المهد واللحد» فرد عليه كيبيدو بمسرحية اخرى ذات ثلاثة فصول عبثت بها ايدى الضياع .

وكان حملة خاورغى بالرغم عن انها لم تكلل بالنجاح جرأت اعداءه الاقدمين فتالبوا عليه من جديد والفوا جبهة ضمت خاورغى وبيريث دى مونطلبان وديبغو دى نيسينو وغيرهم يتزعمهم

باتشيكو دى ناربايث الذى لما عجز عن غلبة كيبيدو فى المبارزة آلى على نفسه ان يصرعه فى ميدان الادب. فوضع بمساعدة هؤلاء مؤلفا عنون له بما يأتى : «محكمة الانتقام العادل لمحاكمة مؤلفات ضون فرنسيسكو دى كيبيدو ، المعلم فى التضليل والدكتور فى القحة، والمجاز فى التهريج، والمأذون فى الاوساخ، والاستاذ فى الرذائل، وانموذج الشياطين بين الناس» ونشر الكتاب تحت اسم مستعار. وهو عبارة عن مجموعة من الشتائم والاهانات والافتراءات الشخصية مع بعض انتقادات مغرضة ترمى كلها الى هدف واحد وهو الحط من عظمة كيبيدو لكنه لم يشأ ان ينزل الى مستوى هؤلاء الحسدة للرد عليهم. وقد اجاب بعض اصدقائه لما الحوا عليه ان يرميهم بسهام قلمه: «ان ذلك ليدنينى الى رتبتهم الخسيسة . وانما خير لى ان امتثل قول الحكيم الذى ينصح بألا يجاب الاحمق بنفس حماقته » .

غير ان هذه الترهات لم تمنعه من الاهتمام بقضاياه ودروسه فتابع الدعوى المفتوحة بسبب تفليس التاجر الجنوى الذى كان قد استودعه بعض الامتعة واللوحات الزيتية كما اشرنا الى ذلك فى حينه وتمكن من استرجاع بعضها.

فى ٢٧ أغسطس من تلك السنة توفى لوبى دى بيغا وتبارى الشعراء والادباء فى رثائه . وقد جمع بيريث دى مونطلبان مراثى لمائة وخمسين اديبا . لكنه لم يرد بينها اى رثاء من نظم كيبيدو. ولعل السبب فى ذلك هو قيام بيريث دى مونطلبان ـ من الد اعداء كاتبنا ـ بجمع تلك المراثى، والا لما امكننا ان نعلل هذا التغاضى من كيبيدو عن رثاء صديق من اعز الاصدقاء واديب

من الدرجة العليا وهو الذى رثى الكثيرين ممن لم يتوفر فيهم واحد من الف مما توفر فى لوبى من المواهب .

لكن كيبيدو لم يكن ليهدأ عن الانتاج الادبى ، ففى هذه المدة اى فى اغسطس وسبتمبر وضع اربع رسائل طبعت بعد موته ومنها تالف القسم الثانى من «الفضيلة المحاربة» واعقبها برسالة تهكمية عنوانها «زيارة وتشريح رأس الكردينال ارماندو دى ريشليو» هجا فيها هجاء لطيفا لاذعا الوزير الفرنسى الشهير. ثم شرع بكتابة رسالة هجائية اخرى ضمنها خلاصة نكته الحادة تحت عنوان «النشيد الصنديد لبلاهات وحماقات اورلاندو العاشق ، موجها الى اكثر الناس سخطا» وبطل النشيد خصمه اللدود باتشيكو دى ناربايث ومعه بيريث دى مونطلبن وغيره من اخصامه . لكنه سئم من هذه الرسالة بعد ان نظم نشيدين وبدأ بالثالث فتركها.

واخيرا بعد ان قضى مجبرا ثمانية اشهر فى مدريد التى قدمها لتمضية بضعة ايام فحسب عاد الى برج خوان اباد فى اوائل نوفمبر. وفى ١٣ منه كتب الى صديقه ضون خوان سانتشو دى صاندوبال معلما اياه بأنه سيزوره عما قريب فى بلدته «بياس دى سيغورا» لكنه اضطر الى تأجيل الزيارة لانه ابتدأت ترد اليه من البلاط الملكى رزم كبيرة من الرسائل الواردة على الملك ليجيب عنها بصفته كاتبا له . وبعد ان انهى تلك المهام الرسمية عاد الى التاليف فوضع الثلاثة الاجزاء الاخيرة من القسم الاول من «الفضيلة المجاهدة» بعد ان كان قد وضع الجزء الاول منه فى سيتينا بعيد زواجه .

ثم استمر فى «البرج» ثلاثة اشهر اخرى كتب خلالها مؤلفا آخر عنوانه «ساعة الجميع والحظ الفطن» فرغ منه فى اواسط مارس من سنة ١٦٣٦ وفى اواسط مايو قصد مدريد ليجتمع بنسيبه اسقف اوسما Osma الجديد وابناء أخته ومن ثم يواصل السير الى مدينة سالم ، فلم يجد الاسقف والم يتمكن من الذهاب الى مدينة سالم لان الخيول والبغال كانت كلها مشغولة بنقل الناس المتوجهين الى ميادين القتال. واخيرا فى اوائل يونيو تمكن من متابعة رحلته. وقضى فى قصر الدوكى ثلاثة اشهر . ثم عاد الى مدريد فى شهر سبتمبر ليطبع كتابا آخر وضعه على ما يظن فى مدينة سالم وعنوانه «اقوال واعمال الدوكى دى اوصونا» لكنه لم يتفق مع الطباع وبقى الكتاب مخطوطا ثم ضاع

وقد اغتنم اعداؤه فرصة وجوده فى مدريد فحملوا عليه حملة جديدة ورد عليهم اجمعين للمرة الاخيرة بقصيدة ظريفة . وحدث بعد ذلك ان بيريث دى مونطلبان اصيب باختلال عقلى ادى به الى الجنون . واذاك حاول اعداؤه ـ وقد اعماهم الحقد ـ ان يرموا تبعة جنون مونطلبان فموته على مؤلفه «لا بيرنولا» وما كاله له من الهجاء فيها. لكن كيبيدو كان بريئا من جنونه.

بقى كاتبنا فى مدريد ينتظر نسيبه اسقف اوسما الذى كتب اليه يسأله ان يرافقه عند دخوله للمرة الاولى الى ابرشيته واثناء هذا الانتظار شاهد الاحتفالات الفخمة التى أقيمت فى العاصمة ابتهاجا بما احرزته الجيوش الاسبانية من انتصار على الفرنسيين وكتب اذاك رسالته الوطنية «فتح وادى رونثيث» فى

هجاء الفرنسيين والتهكم عليهم مذكرا اياهم بالاندحارات التى منوا بها فى السنة السابقة.

وفى ٤ اكتوبر تلقى رسالة تقريظية صادرة عن مدريد نفسها من الكاتب البرتغالى الشهير فرنسيسكو مانويل دى ميلو الذى كان اذاك فى الثامنة والعشرين من سنه وكان دى ميلو معجبا كل الاعجاب بكيبيدو ويلقبه «بمعلمه» وقد حذا حذوه فى كثير من مؤلفاته ، وتكاتبا حتى سنة ١٦٣٩ . ثم انقطعت الصداقة بينهما بعد ان ثار البرتغال على اسبانيا وكان دى ميلو فى طليعة مؤيدى الانفصال الذى تم بعد قليل واصبح البرتغال من جديد مملكة مستقلة .

مضى شهر اكتوبر واسقف اوسما لم يصل فسئم كيبيدو الانتظار وغادر مدريد فى اواخره، فبلغ «برج خوان آباد» فى ٤ نوفمبر بعد ان قضى ـ على حد قوله ـ ستة ايام فى الطريق دون طعام ولا شراب ولا نوم. وما ان بلغ القرية حتى باشر العمل بالرغم عن الفاقة التى حلت بالبلاد تلك السنة فعم الجوع والعراء فى كل صوب وحدب، فالف «ملخص خدمات ضون فرنسيسكو غوميث دى صاندوبال» ثانى من حملوا لقب الدوكى دى ليرما. ثم كتابا آخر عنوانه «رواية الحيل التى حاولت فرنسا بواسطتها ان تقلق خواطر الفلامنك الامناء ليثوروا على ملكهم ومولاهم» وطبعه فى مالقة سنة ١٦٣٧ . وبينما هو غارق فى لجة الانتاج الادبى اذا بالوزير الكوندى اوليفاريس يستدعيه الى مدريد على جناح السرعة. فلبى الدعوة ثم اراد العودة الى قريته لكن الدوكى دى مدينسلى دعاه لمرافقته فسار معه فى شهر ابريل الى قصره فى

«كوغو يودو»، لكن الاقامة لم تلائمه فأصيب بالحمى التى كادت تؤدى بحياته . ثم قدر الله له الشفاء دون ان يتناول علاجا لما كان فى قلبه من الشك فى وسائل الاطباء وعلاجاتهم . غير ان طور النقاهة امتد طويلا واضطر خلاله الى التوكؤ على العكاز . ولم يسترجع قواه حتى شهر ديسمبر واذاك عاد الى قريته حيث امكنه اخيرا ان يستأنف الكتابة .

غير ان اقامته هذه المرة لم تطل لان الانباء القادمة من مدريد كانت تفيد بتفاقم الحالة السياسية والحربية. فمن ناحية ثورة البرتغال اخذت تستفحل بالرغم عن انتصار القوات الاسبانية على الثائرين فى باديء امر ، ومن جهة اخرى كانت الوضعية فى فلانديس وايطاليا تزداد سوءاً، فلم يصبر كيبيدو على العزلة وهرع الى مدريد. وقبل ان يبلغها وصله نبأ بأن صديقه وكاتبه ضون الونصو مسيا دى ليبا فى حالة النزاع فى بلدة بيا كاريو Villacarrillo فكتب الى صديقه ضون صانتشو فى بلدة بياس يرجوه ان يستخلص من بين اوراقه ـ فيما اذا كان قد توفى ـ مخطوطتين له «حياة ماركو بروتو» و «حماقات اورلاندو»

وفى ١١ مايو سنة ١٦٣٨ بلغ مدريد وفى ٢٥ يونيو توفى عدوه خوان بيريث دى مونطلبان ، وهو فى السادسة والثلاثين من عمره بعد ان اصيب بالجنون كما ذكرنا سابقا . فتبارى الشويعرون والشويعرات يرثونه وفى السنة التالية ظهرت مجموعة تلك المراثى لمائة وستة وسبعين شويعرا. وفى المأتم الفخم الذى أقيم له القى احد الخطباء تأبينا حمل فيه حملة عنيفة على كيبيدو كأنه هو سبب وفاة ذلك المسكين. لكن

كاتبنا لم يأبه لهذه الحملة لأن الوضعية الحربية كانت تسترعى كل اهتمامه اذاك. فان فرنسا انتهى بها الامر الى ارسال ٢٠,٠٠٠ محارب تحت قيادة البرنس دى كوندى ، فعم القلق اولا بين الاسبانيين امام الانتصارات الفرنسية الاولى، لكن القوات الاسبانية لم تلبث ان احرزت نصرا مبينا على الفرنسيين فى وقعة فوينترابيا. وقد خلد كيبيدو ذكرى ذلك النصر فى رسالة وضعها تحت عنوان «شبح موث دى لا فورجا» يظهر لغوستاف هورن الاسير فى فيينا ويقص عليه قصة الاندحار الذى منى به الفرنسيون فى فوينترابيا Fuenterrabia

لكن الحالة فى البرتغال وفلانديس وايطاليا كانت بالرغم عن هذا الانتصار تسوء يوما بعد يوم. والكردينال ريشاليو لا يألو جهدا فى حشد الجنود لمعاودة الكرة على اسبانيا.

عاد كيبيدو الى «البرج» فى ديسمبر وفى الثلاثين منه بعث برسالة اخرى الى صديقه ضون صانتشو فى بلدة بياس يتأسف فيها على موت ضون الونصو مسيا دى ليبا ويرجوه ثانية ان يستخلص من بين اوراقه مخطوطتيه « حياة ماركو بروتو » و «حماقات اورلاندو» فضلا عن اوراق أخرى، وقبل ان يجد وقتا كافيا للراحة تلقى امرا جديدا من الملك ودعوة من الدوكى دى مدينسيلى للعودة الى مدريد، فرجع اليها فى ١٦ يناير من سنة ١٦٣٩ وحل هذه المرة فى قصر الدوكى. ويظهر ان هذا بعث يدعوه اليه ليستشيره فيما اذ كان يجدر به ان يقبل منصب «نائب الملك فى اراغون» الذى احب الملك ان يسنده اليه. ويقدر ان رفضه ذلك المنصب كان باشارة من كيبيدو. ولعل الرجلين تعاهدا

على الا يقبلا اى منصب حكومى ما دام الكوندى اوليفاريس متوليا زمام الحكم وسائرا بالامة نحو الهاوية. والحق يقال ان البلاد كانت فى حالة محزنة وبهذا الصدد يقول المؤرخ الكبير فرناندیس غيرا : «تحت نير الكوندى ـ دوكى دى اوليفاريس تمزق الوشاح الامبراطورى الذى تتوشح به ملكة الغرب واصبحت تتلاشى ، فى كل ساعة، واحدة من اجمل مقاطعاتها. وانحطت الاخلاق وانتفت العدالة من بين الناس واصبحت الامة على وشك الانتقاض وحل فيها كل منكر من سرقة وزنى وقتل. فانى لرجل مثل كيبيدو ان يربط مصيره بمصير الحظى ؟ اما الشعب فكان يعبر عن استيائه بقصائد واغانى تعريضية...»

أجل عم الشقاء وعيلت الامة صبرا فأخذت الانتقادات الشعرية والنثرية من تصريح وتلميح ترد من كل جانب وكلها مغفلة خوف العقوبات الصارمة. وراجت مخطوطة عنوانها «جزيرة المونوباطوس» ندد فيها بتآمر اوليفاريس مع يهود سلانيك ، وقدر البعض ان لكيبيدو يدا فيها. لكنه لم يثبت ذلك الظن، ثم انتشرت قصيدة اخرى عنوانها «أبانا...» تضمنت مقاطع شديدة اللهجة يطلب فيها بكل صراحة عزل الوزير. لكن هذه الانتقادات لم تكن لتصل الى مسامع الملك لان اوليفاريس بث حوله العيون بحيث كان من المستحيل ان تصل الى ايدى الملك اية ورقة سرية دون ان يطلع عليها الوزير سابقا .

وامام هذه المأساة الوطنية الكبرى، لم يسع كيبيدو الا ان يغامر بنفسه ليفتح عيون مليكه ويدله على حالة البلاد التى تسير بخطى سريعة الى هاوية الدمار. واذا بفيليب الرابع ذات يوم فى

اوائل شهر ديسمبر من تلك السنة يجد على مائدته تحت المنديل رسالة شعرية طويلة تصف وضعيـة البلاد وصفا حقيقيا مؤلما بلهجة شديدة. واننا نقتطف منها الابيات الآتية :

«ان اسبانيا لم تدفع من الضرائب لمائة ملك مجتمعين بقدر ما تدفعه لكم .

والشعب المتألم اصبح يخشى ان تفرض مكوس حتى على التنـفس.

ان صدور الاسبانيين فقدت قوتها لاقتيات اصحابها بفضلات الكرنب.

كم من عائلات بلا شروى نقير وارامل بلا مناديل تنتظر والجوع يفتت اكبادها والصمت يطبق افواهها ! .

وهنالك وزير ينفق ابان السلم فى مصالحه ،

اكثر مما ينفقه عشرة ملوك ابان الحرب .

ان الرعاع قطعوا الزمام وانصرفوا الى النهب والقتل هازئين بالقصاص وعابثين بالحياة.

ويقول بعضهم : ما ذا تهمنا ألف مشنقة ،

ما دام الجوع والعراء أشنع ميتة منها .

والمناصب والمراتب ما تفتأ تشرى وتباع .

ومعنى ذلك تسليط جلادين دائمين على رقاب الشعب .

اننا جميعا ابناء سلمنا الله اليكم ،

ولا يجمل بكم ان تميتونا كالدواب تحت عبء الحمل .

* * *

وبعد ان ذكرت الحرب وانتقدت السياسة الطائشة التى ادت اليها تأتى الابيات التالية :

«ولكن ما دامت الحرب قائمة فى ايطاليا وفلانديس.
فليكف عن هذا الاسراف داخل الدار.
ولا يكن دمى ودم ابنائى
للزيادة فى الصهاريج المعدة للمتعة.
انهم يبيعون للفلاح الحزين محراثه ،
ليصنعوا لكم منه شباكا لا حاجة اليه.
أجل! انه يحق للملك.ان يتفسح وينفق.
ولكن من العدل ان يزن نفسه ويدفع (ثمن ما ينفقه).
ان هذه النفقات ليست بالفتات القليل.
لان الكثيرين يحرمون افواههم منها.
وليس من الجميل ان تفضل الف قطعة من الارجوان اذا كانت كلها تطلى بدم الفقير.
وليست بعذبة ولا نافعة تلك العظمة التى تسيل دموع هذا القدر من البائسين .
ان شعبا يرتع فى بحبوحة العيش ليحلى مليكه اكثر من تزينه حتى قمة رأسه بأفخر أنواع الماس .
اذا كان الملك رأس الشعب فمن المحال ان تجلو الزينة رأس جسم عار.
ان الدواء بين ايديكم فضعوه فوق الداء يا مولاى.
جعلكم الله بدل الكبير الاكبر».

قرأ الملك الرسالة فاستشاط غيظا ودعا بالوزير اوليفاريس

فحضر وكم كانت دهشته لما رآها وكم ازداد حنقة اذ تبين له ان جميع احتياطاته لعزل الملك عن شعبه لم تنفع، وخامره شك فى شأن هذه اليد التى تمكنت من الوصول الى المائدة الملكية ودس تلك الاوراق امام الملك. وفى الواقع لم يكن من السهل اكتشاف صاحب الرسالة، لولا الخيانة...

كان كيبيدو ـ وهو ناظم الرسالة ـ قد افشى بسرها الى «صديق» له كان يدعى الاخلاص والوفاء ويزوره مرتين كل يوم منذ خمس سنوات فضلا عما له عليه من الايادى البيضاء. وهذا الصديق ـ الذى لم يشأ كيبيدو ان يدلى باسمه فى مذكراته ـ هو الذى حمل الخبر الى الوزير فما لبث ان صدر امر ملكى باعتقال كاتبنا. وعزم اوليفاريس ان يفرض عليه عقوبة تجعله عبرة لمن اعتبر.

وتنفيذا للامر بالسجن استدعى الملك فى صبيحة ٦ ديسمبر الى القصر اسقف غرناطة الجديد ضون مارتين كاريو دى الديريطى احد انسباء كيبيدو وأعلمه بأنه قرر سجن الكاتب فى دير القديس مرقص دى ليون ورجاه ان يدله على طريقة اجرائه. فكتب الاسقف الى الملك فى عشية ذلك اليوم نفسه يعلمه بأنه من الواجب اصدار امر ملكى الى رئيس الدير المذكور لقبول السجين واعداد غرفة له هنالك. فاصدر الملك الامر على هذه الصورة.

ويظهر فى بادىء الامر ان تلطف الملك باعلامه نسيب كيبيدو بالقضية واستشارته فى كيفية تنفيذ السجن دلالة على ان ذلك السجن لن يكون شديدا. لكن الكوندى اوليفاريس تولى

المسألة بنفسه وقد احرق الحقد قلبه واقسم ان يرى كيبيدو يموت مكبلا فى اعماق السجون .

على الساعة الحادية عشرة من ليلة اليوم التالى وصل الى قصر الدوكى دى مدينسيلى ضابطان من ضباط القصر الملكى دون ان يثيراضجة او يشعر بهما احد. وبينما كان احدهما يقابل الدوكى ليبلغه امرا كلفه به الملك كان الآخر يوقظ كيبيدو من نومه ويأمره بارتداء ثيابه على عجلة ويقبض عليه دون ان يسمح له بجلب معطفه ويذهب به تاركا رفيقه ليستولى على جميع اوراقه. فاركبه عربة قادته الى الجسر الطليطلى حيث كان بانتظاره مامورو العدالة الذين اقتادوه الى دير القديس مرقص دى ليون التابع لجمعية فرسان شنتياقب (القديس يعقوب) ولما مر بالجسر المذكور فى تلك الساعة المتقدمة من الليل دون معطف ولا قميص يرجف بردا رق عليه قلب احد المأمورين واعطاه جوربا طويلا من الجوخ كما ان الضابط الذى اعتقله اعطاه اذاك قميصين اتقى بهما شر البرد القارس الذى كاد يذهب بشيخوخته .

وفى اليوم الثانى انتشر الخبر فى مدريد فقامت المدينة وقعدت وسرت اشاعة بأنه سيعدم . لكن اوليفاريس لم يجرا على هذه الخطوة لان شهرة كيبيدو كانت قد طبقت الخافقين فاعدامه لا بد ان يحدث هرجا كبيرا واستياء فى اوربا كلها ولذلك فكر بعقاب امر وادهى من الاعدام ، فكر فى ان يزجه فى قعر سجن ضيق دون ادنى اتصال بالعالم حيث يفنى ما بقى من ايام حياته. ثم لم يلبث ان امر بنفى الدوكى دى مدينسلى من مدريد .

لكن سجن كيبيدو لم يكن من شأنه الا ان يذكى نار الحقد على سياسة اوليفاريس لان الجميع رأوا ان كيبيدو انما سجن لقوله الحق وكانت الايام كفيلة بنصرته على ذلك الظالم .

الفصل العاشر

كيبيدو سجين فى دير القديس مرقص ـ عزل الكوندى اوليفاريس ـ اطلاق سراح كيبيدو ـ مرضه الاخير ووفاته

لم يكن سجن كيبيدو رادعا لاعدائه ليكفوا عنه اذى ألسنتهم، فظلت سهامهم تنشب اليه وهو وراء جدران السجن منددة بخطورة جرمه وعظم اثمه، يتزلفون فى ذلك الى الملك وحظه وقد بلغت القحة بأحدهم ، خوسى دى باييثر إى سالس ـ وكانت قد اصابته شرارة من هجاء «لا برينولا» ـ ان طالب باعدام كاتبنا الكبير.

وتمر الايام تلو الايام دون ان يعرف ادنى خبر عن كيبيدو وهكذا انقضت ستة اشهر عرف فيما بعد ما قاساه اثناءها من عذاب من خلال مقطع ورد فى مؤلفه الاخير «ثبات ايوب الصديق وصبره» وقد وضعه فى تلك المدة قال :

«أريد ان اتحدث عن نفسى... بينما كنت فى دار احد العظماء وهى دار الدوكى دى البا (الذى يحج اليها لمشاهدة عظمتها) وانا فى الحادية والستين من عمرى الذى قضيت منه اثنتى عشرة سنة فى السجون وتسعا اخرى فى البحار والطرقات

وقد اصبح الجسم ضيفا ثقيلا مثخنا بأحد عشر جرحا انفتح منها اثنان، اعتقلنى ضابطان من ضباط القصر مع عشرين من الاعوان، ثم بعد تجريدى من كل شيء واخذ مفاتيح الكل اقتدت دون قميص ولا معطف ولا خادم، ودون تناول الطعام، على الساعة العاشرة والنصف ليلا من يوم ٧ ديسمبر فى عربة مع احد الضابطين ومامورين من القصر واربعة حراس كالمحكوم عليه بالاعدام اكثر منه كالسجين، فى شدة الشتاء دون ان اعرف لماذا او الى اين؟ فاقطع خمسة وخمسين فرسخا فى الطريق الى دير القديس مرقص الملكى فى ليون التابع لجماعة شنتياقب الى حيث وصلت عاريا دون فلس واحد وحيث قضيت ستة اشهر وحدى فى غرفة مقفلة من الخارج. وقضيت فى الدير سنتين منذ ٧ ديسمبر سنة ٣٩ الى اليوم ٢٠ اكتوبر سنة ٤١ وبهما ترتفع الى اربع عشرة سنة المدة التى امضيتها فى السجون المشددة »

ولما امكنه ان يتصل قليلا بالخارج بعث برسالة مغفلة وبدون تاريخ الى صديق له لم يعرف اسمه لكنه يقدر انه كان من المترددين على القصر ولذلك اتخذ كاتبنا الحيطة فأخفى اسمه . والرسالة آية بليغة فى الادب وامثولة رفيعة فى كبر النفس والنبل والاستسلام الى العناية الربانية. قال :

«غمتك عزلتى فى هذا المنفى الطويل، نعم ! اننا هنا وحيدين انا والسجن. ولكن ان كنت تحسبنى حيا فلى من نفسى انيس، ولم أر قط أنسا مثله اليوم وانا وحدى. فجميع ساعاتى هى لى، وانى لأتحدث مع العناية الالهية بالادراك ومع العدل الاسمى بالارادة ومع العبر بالذاكرة . والكتب تتحدث الي فأسمع

كلماتها بعينى. لم اكن قط كاليوم ، كلى لنفسى، ان ما يحرره السجن من ذاتى لاثمن واعظم مما يأسره بقدر ما يفضل الوقت اللهو، لقد حبسونى فى اصطبل لكنى بالرغم عن الاقفال المحكمة ارانى حرا. لقد اسروا منى جسما اوقفته الشيخوخة قبل الحرس

«ليس من السلطان بشىء ان تأمر بألا يخرج من يعجز عن الوقوف. فمن يحتفظ بما يكره ، لاكثر جبنا منه بخلا. ولو جرد افظع المجرمين من قيوده ووضعت له رجلاى وسنى لصاح طالبا ارجاعها. فالهمة وهى لا تدخل ضمن دائرة الاقفال ترتفع من الارض الى السماء وتروح وتجىء آخذة لنفسها قسطا من الراحة بعد قطعها مراحل واسعة. ان اضمر لى اعدائى حقدا فانى اقابلهم بالصبر. وبوسعهم ان يذيقونى كأس الموت، وهى مهمة تعهدت بها منذ ولدت طبيعتى نفسها، فان كنت لا اشكو من نفسى اذ انهى حياتى كل يوم فبالاحرى الا اشكو ممن يساعدنى على ما اعمله فى ذاتى.

«ان تسألنى عن سبب سجنى اجبتك لانى لا اعلم. وليس ذلك بالقليل ، ولا شك انى كثير الغباوة ما دمت لم اتمكن من معرفته اثناء هذا القدر من السنين ، فانى اشقى اذا لما لا اعرفه؛ اشقى لجهلى. وان كان الجهل ذنبا فلتقفر المدن وتعمر السجون فليس الحمق اذاً ان اكون انا سجينا بل ان لا يكون فى السجن الكثيرون، لست ادعى انى برىء ، لكن السكوت عن ذنبى يجعلنى اظهر بريئا. اذ ان القوانين لا يكفيها الشعور بعدلها نحو ذاتها فقط بل للمجرم ايضا الحق بهذا الشعور، ومن يحكم دون ان يسمع الطرفين يمكنه ان يقضى بحق لكنه ليس بعادل.

«يلوح لي ان احدهم وشى بى وانه من اصدقائى المقربين ولو ان التهمة تفرض الذنب لما كان احد بريئا. ومن يقل لى انه من المريع ان اتعذب بلا سبب اجبه بما اجاب به سقراط : «أتودين ان اتعذب بسبب ؟».

وبعد ان يشير الى ما احدثه نبأ سجنه من فرح فى نفوس الحاسدين وما اولوه عليه من اكاذيب عاد الى الكلام عما يعانيه من ضيق يتحمله بصبر عجيب فيقول : «مرحى لمن يتاح له بينما العالم يتردد ليضل الطريق ان يطأ مثلى المكان الذى سيطاه ويسقط فيه. ان معالم الموت اصبحت تنتشر فى وجهى كله . ولقد آن لى ان اتهيأ لليوم الاخير، فليقبل اذاً. وما دمت لا اقوى على ابعاده فليس لى ان اهابه وانما يجدر بى ان استعد له. اجل! ان ذلك اليوم سيحملنى لكنه لن يقتلعنى . فلنطلق الاحقاد اذاً ولنسرح الحسد، فطالما كنت فريسة لنهمهما. وقد آن الاوان ليحولا جشعهما الى مرعى آخر لانه لم يبق منى سوى فضلة ابقاها القرف لا الشبع».

لكن الحوادث السياسية لم تلبث ان صدقت تكهنات كيبيدو فى قصيدته التى كانت سبب سجنه. فان اسبانيا بالرغم عن انتصاراتها الحربية على فرنسا وفى ايطاليا لم تحصل على نتيجة مرضية لانها كانت تنقصها الوحدة الداخلية لسوء سياسة اوليفاريس . ففى ٧ يونيو من سنة ١٦٤٠ شبت فتنة فى برشلونة عرفت باسم «خميس الجسد الدامى» وفى ٤ ديسمبر من السنة نفسها ثار البرتغال مناديا بالدوكى دى براغنصا ملكا. وفى الجنوب كان الدوكى دى مدينة

صيدونيا يؤيد الناقمين. ويعتبر المؤرخون هذه الفترة مبدأ عهد تدهور اسبانيا وسببه تلك السياسة التى قسمت الاسبانيين على انفسهم لتشبث فريق منهم بالمحافظة فى كرسى الحكم على رجل ظالم وغير كفؤ للتطلع باعبائه.

بلغت انباء تلك الحوادث مسمع كيبيدو وهو فى سجنه فزادته غصة لكنه تناولها بصبره المعهود. وكتب الى صديقه الذى وجه اليه رسالته السابقة يقول له من جملة ما يقوله : «ان هذه الفتن الدامية التى ادهشت العالم بالموت والحديد لا تتحرك من اجلى واجلك. وانما هى مقادير خفية تحركها العناية الالهية . ان الله حين يعاقبنا نحن بنى آدم لا يعاقبنا لاننا افرغنا صبره بل لاننا نعرض عنه ولا نستحقه» وقد زاد فى الطين بلة ظهور «المذكرة» مطبوعة فى برشلونة فى اواسط سنة ١٦٤١ اما من ابلغ المحطوطة الى المطبعة فذلك سر لم يكشف الى اليوم .

لم تنجع الانتقادات الكثيرة التى وجهت الى الكوندى دوكى دى اوليفاريس اذ بقى فوق سدة الحكم وبقى كيبيدو فى سجنه يعانى الامرين الى ان الم به فى آخر الامر مرض عضال قرب اليه كاس الحمام فخانته قواه وارسل كتابا الى الوزير اوليفاريس يستعطفه ويسترحمه. ومن جملة ما جاء فى هذا الكتاب، بعد ان شرح الآلام التى يعانيها منذ سنة وعشر اشهر فى السجن، ما يلى: «من يرنى لا يعتبرنى سجينا بل ميتا. ولذلك بت لا انتظر الموت بل اعاشره. وما احياه ليس الا من كرمه. وليس ينقصنى كميت سوى اللحد لانه راحة الموتى» وبعد ذلك يضيف قائلا : «لقد خسرت

كل . شيء فثروتي التي لم تكن قط كبيرة قد اصبحت اليوم معدومة واصدقائي افزعتهم المصيبة. فلم يبق لي سوى الامل بكم».

لكن اوليفاريس كان شديد النقمة على كيبيدو فلم يعر استعطافه اي اهتمام . وبقي كاتبنا في سجنه القاسي يتألم ويتحسر . ولم يخفف شيئا من قساوة هذا السجن سوى تداخل الراهب اليسوعي بدرو بيمنطيل الذي اتفق ورهبان الدير على احسان معاملة السجين بالرغم عن اوامر الوزير الصارمة . وهكذا قضى كيبيدو سنتين اخريين في سجنه لكنه لم يكن يقاسي خلالها الآلام التي عرفها في السنتين السابقتين .

ولم يكد الدوكي دي مدينسيلي يغادر المنفى حتى خف الى مساعدته فكان لتداخله ايضا فضل كبير في تخفيف وطأة السجن على الاديب الكبير .

ولما رفع عنه هذا التضييق الشديد اصبح سجنه كعبة يحج اليها الناس من كل قطر وصوب للتحدث اليه لكنه كان يأنف من استقبال من يأتون على وجه الفضول. ويروي المؤرخ تارسيا انه لجأ الى حيلة لطيفة لابعاد الزوار الفضوليين. وذلك انه اسر ذات يوم الى رجل ساذج كان يقوم على خدمته مجانا انه اذا دخل عليه بعض اشخاص فليتقدم اليه هو بسؤال ادبي لقنه اياه. وهكذا حدث. فلما حضر الزائرون ودخل الساذج والقى عليه السؤال فقال كيبيدو : «ان هؤلاء السادة هم اولى بالجواب لما يتحلون به من علم واسع». فأجاب أعلمهم وسكت الجهال. وتكررت اسئلة الساذج في كل زيارة مما دعى الفضوليين والجهال الى التخلف عنها. واقتصر على زيارته رهبان الدير وبعض العقال والمفكرين

الذين يجد فى محادثتهم متعة للعقل. وكانت نكته ملح الاحاديث ونوادره فاكهة المجالس». ولو جمعت ـ على حد تعبير تارسيا ـ لاتسع حجم هذا الكتاب اتساعا كبيرا .

ويظهر ان بعض زائريه كرروا عليه الاشارة بالكتابة ثانية الى الكوندى ـ دوكى بمناسبة اعترافه بابنه غير الشرعى المسمى خوليان بعد ان اطلق عليه اسم ضون انريكى فيليب دى قزمان . فبعث اليه بكتاب جديد يلتمس على الاقل ان ينقل من سجنه الى سجن آخر . لكن اوليفاريس اصم اذنيه عن استماع صراخه .

لم يكن السجن بأهواله حجر عثرة فى سبيل نشاطه الفكرى فكتب فى هذه الآونة الممتدة بين سنتى ١٦٤٠ و ١٦٤٢ مؤلفين سياسيين احدهما عن اسباب ثورة الدوكى دى براغانصا فى البرتغال والآخر عن فتنة برشلونة . وكلاهما باسم مستعار. وصفحات المؤلفين تفيض بروح الوطنية التى كانت تملأ صدر كيبيدو .

وخلال المدة نفسها انصرف الى وضع تأليف آخر عنوانه: «العناية الالهية» نزولا عند طلب الاب موريسيو دى اطودو وهو من اهم مؤلفاته واعمقها معنى وارفعها مغزى. وحيث لم يكن يديه فى سجنه كتب يرجع اليها فقد امده بما احتاج اليه منها اسقف ليون ضون برتولومى سانطوس دى ريسوبا ونشأت عن ذلك صداقة متينة بين الاثنين فتبادلا كثيرا من الرسائل سلم منها الى يومنا هذا اربع لا غير. وقد فرغ كيبيدو من وضع هذا الكتاب فى اواخر سنة ١٦٤٢ وشرع بكتابة «حياة القديس بولس الرسول».

لكن حدثا خطيرا حدث فى اوائل سنة ١٦٤٣ جاء ليضع

حدا لسجنه الاليم . ففى ٢٣ من شهر يناير (كانون الثانى) عزل الكوندى اوليفاريس من منصبه فتنفست البلاد الصعداء وبلغ الخبر دير القديس مرقص فى ٤ فبراير (شباط) التالى. فاهتز كيبيدو طربا وتحرك يراعه فبعث بمذكرة الى الملك فيليب الرابع يلتمس منه ان ينصفه اذ لا دعوى عليه معروفة وان يرد له حريته وثروته واوراقه. لكن الملك ابلغه اعوانه ان تلك الاوراق لم تعاين بعد. فكان ذلك مدعاة الى توجيه كيبيدو مذكرة جديدة الى الملك يستلفت نظره الى ما من ظلم وحيف فى القول بأن اوراقه لم تعاين بعد وقد مر عليه فى السجن ثلاث سنوات وثلاثة اشهر .

وكان رئيس مجلس قشتالة اذاك ضون خوان شوماثيرو صوطومايور فآلى على نفسه ان يخلص كيبيدو من السجن ففاتح الملك بالقضية فى ٣ مايو طالبا منه كتابة ان يأمر باطلاق سراحه. فأجاب الملك بقرار نصه ما يلى: «ان ضون فرنسيسكو قد سجن بذنب عظيم. فقل ليوسف غونصاليص ان يفرغ من مراجعة اوراقه ويطلعك على النتيجة. وبالاستناد عليها يمكن اتخاذ قرار». وفى ٧ يونيو (حزيران) التالى عاد شو ماثيرو فرفع الى الملك تقريرا نصه حسبما يلى :

«مولاى... ان المأذون يوسف غونصاليص كان قد راجع قسما من تلك الاوراق وكذلك ضون مارتين دى ارنيدو المدعى العام لدى مجلس المحاسبات وانا بنفسى قد اطلعت ايضا على هذه المخطوطات ومن بينها كثير من مسودات مؤلفاته ومؤلفات شعرية فى مواضيع مختلفة وقد ظهر لنا انه يجب ان تسحب منها قصيدة هجائية موجهة ضد بعض رجال الدين وكذلك بعض

كراريس اخرى عنوانها «مخيبات التاريخ» لكنه لم يعثر على شيء البتة يتعلق بالقضية التى كانت السبب فى سجنه. ولقد عرفت وانا فى روما ثم تأكدت من ذلك بعد وصولى الى هذه العاصمة ان ضون فرنسيسكو ليس بمؤلف القصيدة التى اعتقل على اثر نشرها. وان المأذون يوسف غونصاليص لا يعرف شيئا عن القضية وقد مر على السجين فى سجنه نيف وثلاثة اعوام. وقد قارب عمره سبعين سنة ، وحل به من الامراض ما لا يتيح له النهوض من الفراش وان حياته نفسها أصبحت فى خطر ولا شك ان ما قاساه حتى اليوم لعبرة كافية له. فاذا ما قررت جلالتكم اطلاق سراحه امكن زجره وتنبيهه والاحتفاظ بالاوراق التى فى نشرها خطر وعلى كل حال فلجلالتكم النظر ».

فبعد ان اطلع الملك على هذا التقرير الجديد كتب على اسفله القرار الآتى : «افعل ما تريد».

وهكذا اطلق سراح كيبيدو وقدم مدريد فى اوائل شهر يوليو (تموز) وقد خف لاستقباله عدد كبير من اصدقائه ومن جملتهم الدوكى دل انفنطادو والدوكى دى ماكيدا والدوكى دى نخيرا. وقد سبق الكل الى استقباله ضون فرنسيسكو دى ابييدو ثم امين اسرار الملك الذى سلمه جميع امواله المودعة عنده.

ولما رآه صديقه الدوكى دى مدينسلى على هذه الحالة من الضعف والهزال دعاه الى قصره فى بلدة كوغويودو لاسترجاع قواه بعيدا عن ضوضاء المدينة ومشاكلها وازدحام الزائرين والفضوليين

ويقول احد المؤرخين انه وجد مدريد فى الايام القليلة التى

قضاها فيها بعد عودته من السجن مقفرة حزينة تخيم عليها مظاهر الكآبة وتشغل بال جميع سكان الحرب القائمة فى قطلونيا فقبل كيبيدو دعوة صديقه واقام فى كوغويودو حتى شهر سبتمبر (ايلول) واذاك عاد الى مدريد لان مضيفه عين قائدا عاما لقوات البحر المحيط والشاطىء الاندلسى وفى مدريد انصرف الى القيام بشؤون الدوكى دى مدينسيلى وإعداد كتابيه «ماركو بروطو» و «حياة القديس بولس» للنشر وقد ظهر المؤلفان مطبوعين فى اواخر شهر اغسطس (آب) من سنة ١٦٤٤ فأهدى اولهما الى الدوكى دل انفنطادو. والثانى الى ضون خوان شومائيرو اعترافا بالجميل لما كان له من مساعى فى اطلاق سراحه.

لكن الاقامة فى مدريد لم تكن لتشفى غليله الآن فأخذت نفسه تحن للعودة الى قرية «برج خوان أباد» وقر رأيه على الانتقال اليها فغادر مدريد للمرة الاخيرة فى اواخر اكتوبر من السنة المذكورة سابقا. لكنه غادرها فى حالة يرثى لها بحيث ظن الناس عند مروره فى طليطلة انه ينقل جثة هامدة وبلغ قريته فى فاتح نوفمبر (تشرين الثانى) وهو يكاد يعجز عن الكلام.

ومن عزلته، تلك كان يتبادل الرسائل مع اصدقائه وفى طليعتهم امين اسرار الملك ضون فرنسيسكو دى اوبييدو الذى كان يرسل اليه من العاصمة اخبارا وافرة عن الوضعية السياسية والحربية، والدوكى دى مدينسلى الذى كان مقر قيادته فى مدينة سان لوكار . وخلال هذه المدة كان يواصل كتابة القسم الثانى من حياة ماركو بروطو لكن البرد القارس اخذ يشد عليه الخناق فى شهر ديسمبر فأحس بتجدد آلامه واشتدادها ولما اعيته الحيلة

ورآى قريته خالية منُ الاطباء والصيدليات انتقل فى ١٠ يناير من سنة ١٦٤٥ الى مدينة بيا نويبا دى لوس انفانطس وهناك فى دار احد اصدقائه وبفضل ما احيط به من عناية وقدم له من علاج احس ببعض التحسن لكنه لم يكن يوسعه فى حالته هذه ان يلبى جميع طلبات ارباب دور الطباعة الذين كانوا يلحون عليه فى ان يبعث اليهم بمؤلفات جديدة لنشرها.

غير ان الانباء التى كانت تأتيه عن مجرى الحرب فى قطلونية كانت تزيده غصة وألما. فنظم فى هذه الا ونة قصيدة وطنية مشهورة مطلعها «شاهدت جدران وطنى التى طالما ناطحت الجو بمناعتها تنهار اليوم تعبة من مضمار الزمن». ولم يكن الموت الفاغر فاه لابتلاعه ليدخل الخوف الى نفسه بل نراه يدعوه بقصيدة رقيقة من نظم تلك المدة مطلعها «تعال يا مفزع الاقوياء والحكماء»

* * *

فى منتصف شهر ابريل عادت حاله تسوء واشتد به المرض فاضطر الى مغادرة دار صديقه خيمينث باطون الى احدى غرف دير القديس عبد الاحد حيث بضعت له خراجة فى احدى ذراعيه. وبعد ذلك بأيام قليلة فوجىء بنوبات قياء اوشكت ان تؤدى بحياته. لكن ساعته لم تكن قد حلت فعاوده شىء من التحسن بفضل ما اسعف به من منعشات وعقاقير، فكتب وصيته برباطة جأش وأقام أمناء على تنفيذها كلا من الدوكى دى الكلا وضون فرنسيسكو اوبييدو وضون فلورنسيو دى بيرا إى تشاكون من فرسان جماعة شنتياقب وصديق كيبيدو وكان الى جانبه فى الدير المذكور خلال هذه المدة

الا ان حياته اصبحت اقرب الى الموت منها الى الحياة . فلم يتمكن من انهاء القسم الثانى من مؤلفه «ماركو بروطو» وزاد فى الطين بلة ان احد خدامه سرق له كل ما لديه من امتعة ومال وابق بها .

ولما قارب شهر مايو (ايار) النهاية ود ان ينتقل الى غرناطة لكن قواه لم تكن لتمكنه من السفر. وما عتم ان ظهرت فى صدره ثلاث دمامل كبيرة فضلا عن الخراجة المفتوحة فى ذراعه. فساءت حاله كثيرا واخذ يرى الموت منه على قاب قوسين دون ان يجزع او يهلع له قلبه. واذا به يحييه تحية المنقذ المحرر بقصيده يخاطبه فيها قائلا : «اقبل مرجوا فانك تحمل الي الخير وانك لواجد منى الشكر لا الهلع».

وتحسنت حاله قليلا بوصول ابن اخته ضون خوان كاريو الديريطى وابن اخته الآخر ضون بدرو الديريطى كاريو كيبيدو حاملا اليه هذا الاخير هدايا من نسيبه رئيس اساقفة غرناطة . وبينما هو على هذه الحالة بلغه خبر وفاة مضطهده الاكبر الكوندى دوكى دى اوليفاريس فى ٢١ يوليو (تموز) من تلك السنة . وكأنه عند وصول هذا الخبر وجد من الضعف قوة ليتناول القلم ويكتب الى صديقه فرنسيسكو دى اوبييدو : «ان لله فى خلقه احكاما خفية عظيمة. فأنا الذى اوشكت ان اموت يوم عيد القديس مرقص (يشير الى نوبات القياء التى ذكرناها سابقا) عشت لأرى نهاية رجل كان يتمنى ان يرى نهاية اجلى بين القيود» . لكن ايام كاتبنا كانت قد اصبحت معدودة . فأحس بشيء من الانتعاش الذى يحس به قبيل الموت من قضى الله بدعوتهم اليه. وظنه تحسنا

حقيقيا فأشار على أقاربه بالذهاب الى غرناطة وانتظاره فيها وقد وطد العزم على ان ينتقل اليها ومن ثم الى سان لوكار لزيارة الدوكى دى مدينسيلى . لكن الدمامل التى فى صدره انفتحت وسال منها قيح غزير عقبه ضعف وهبوط كلى فى جسمه.

وفى ٥ سبتمبر بعث برسالة قصيرة الى صديقه اوبييدو من جملة ما يقول فيها: «عليك ان تصلى الى الله لاجلى اذ تلك هى خير الخدم التى يمكن للاصدقاء تأديتها . فسماحا ان كنت لا احدثك عن شؤون الحرب والسلم فان ذلك ليعد من الفضول الذى لا يمت بصلة الى الخطر الذى انا فيه الآن». وكانت هذه آخر رسائله. وكان قد كتب وصيته فى ٢٦ ابريل (نيسان) واضاف عليها ذيلا فى ٢٤ مايو واوصى بأن يدفن فى الكنيسة الكبرى فى دير القديس عبد الاحد من المدينة نفسها. واوصى بأمواله لاقاربه، وخص كل واحد من اصحابه بهبة من مخلفاته ولم ينس الفقراء فأوصى لمستشفى سيدة الشفاء فى بيا نويفا دى لوس انفانطيس بالنفقة اللازمة لسرير دائم يخصص لمعالجة الفقراء .

وانصرف كل تفكيره الى الاستعداد لملاقاة ربه بقلب صاف وضمير نقى. فكان خلال تلك الايام الاخيرة يصرف ثلاث او اربع ساعات فى الصلاة والتأمل والتذكير . وقبل وفاته بثلاثة ايام دخل عليه صديقه ببعض الرسائل ليوقعها فقال له: هذه آخر رسائل أوقعها . وفى نهار وفاته قبل ان يلفظ النفس الاخير بثلاث ساعات دعا الطبيب فجس نبضه وساله كيبيدو كم بقى له من العمر فأراد الطبيب ان يتملص من الاجابة لكن كيبيدو أحرجه

فقال له ثلاثة ايام. فرد عليه بقوله: «ولا ثلاث ساعات» .

وهكذا كان. فطلب المسحة الاخيرة وبعد قبولها بقليل اسلم روحه الى الخالق قبل ان تنقضى ثلاث ساعات. وكان ذلك يوم ٨ سبتمبر (ايلول) عيد مولد السيدة العذراء .

فالبس معطف جماعة فرسان شنتياقب ونقل جثمانه فى مأتم رهيب من دير القديس عبد الاحد الى كنيسة القديس اندريس واقيمت من اجله صلوات عديدة واحتفالات دينية فخمة اشترك بها معظم سكان المدينة .

وبعد وفاته بنحو من مائة وخمسين سنة امر المجمع الكنسى لتلك المدينة باجراء اصلاحات وتغييرات فى كنيسة القديس اندريس لتتسع لدفن اعضائه فيها. ولما كان القائمون على الاشغال يجهلون ان كيبيدو مدفون فيها فقد اضيفت رفاته الى رفات بقية الموتى المدفونين فى الكنيسة وامتزجت بها .

وهكذا ـ كما يقول استرانا مارين ـ بين الاهمال الكبير فقدت رفات اكمل كاتب انتجته اسبانيا كما فقدت رفات سرفانطيس ولوبى دى بيغا وبلاسكيث... ولكن ان فقد الجسم فان نفسه خالدة بيننا بفضل مؤلفاته».

القسم الثانى

مؤلفاته

ان عبقرية كيبيدو متشبعة الاطراف متعددة النواحي فالالمام بانتاجه الفكرى كاملا يحتاج الى كلام طويل لان قلمه السيال ظل طيلة خمس واربعين سنة يفيض بالدرر الثمينة فتلتقطها المطابع الاوروبية بلهفة واعجاب وتغمر بها مختلف البلدان المثقفة ولم يدع هذا العبقرى الفذ بابا من ابواب الادب والفكر الا طرقه ولا ميدانا الا جال فيه فحاز قصب السبق. ولعلنا لا نخطىء القول اذا دعوناه بالجاحظ الاسبانى، واوجه الشبه بينه وبين الجاحظ عديدة .

ولعله برز على جاحظنا بخوضه ميدان الشعر ايضا وتفوقه فيه تفوقا كبيرا بله عن امارته غير المنازعة فى ميدان النثر . فقد كتب فى التاريخ والسياسة والفلسفة واللاهوت وانتج شعرا خالدا فى الغزل والهجاء والقصص والاخلاق فضلا عن المسرحيات القصيرة والطويلة وقد طبعت مؤخرا مؤلفاته التى سلمت من ايدى الضياع فى مجلدين ضخمين يتجاوز عدد صفحاتهما ثلاث آلاف وخمسمائة من الحرف الصغير .

وسنقسم الكلام عنها الى بابين نخص اولهما بمؤلفاته النثرية والثانى بالشعرية .

الباب الاول

مؤلفاته النثرية

وصل الينا من مؤلفات كيبيدو النثرية نحو من اربعين مؤلفا سنذكر فيما يلى عناوينها مرتبة حسب المواضيع التى تناولتها:

١ ـ المؤلفات الهزلية :

- نسب البلهاء
- قران الزواج بالشباب
- اصل الحماقة وحدودها
- حياة العاصمة والمهن المسلية فيها
- العقود الزوجية
- المنشور المأمور به فى هذه السنة ، سنة ١٦٠٠
- المناشير والتعريفات العامة
- منشور الخيبة ضد المقرمزين
- رسائل فارس الكلابة
- براءة الزمان
- كتاب كل الاشياء ، وكثير غيرها

٢ ـ المؤلفات القصصية :

ـ حياة الشاطر ضون بابلو

٣ ـ المؤلفات الهجائية ـ الاخلاقية

الاحلام :

ـ حلم يوم الحشر والنشر

ـ المأمور القضائى المخبوط

ـ حلم الجحيم

ـ العالم من الداخل

ـ حلم الموت

٤ ـ المؤلفات الاخلاقية :

ـ خطاب جميع الابالسة

ـ ساعة الجميع والحظ العاقل

٥ ـ المؤلفات السياسية :

ـ فى موقف الدفاع عن اسبانيا والازمنة الحاضرة وفى افتراءات الافاقين

ـ سياسة الله وحكم المسيح

ـ العالم الهرم وانشقاقات العصر

ـ رسالة الملك ضون فرناندو الكاثوليكى الى اول نائب ملكى فى نابولى

ـ الاخبار الكبرى لما وقع خلال خمسة عشر يوما او تاريخ عدة قرون مرت فى شهر واحد

ـ لبيب ايطاليا او الفطن الاسبانى

- أبكم الهذر
- زيارة وتشريح رأس الكردينال ارماند دى ريشيليو
- مدح فيليب الرابع
- ملخص الخدمات التى اداها ضون فرنسيسكو غوميث دى ساندوبال دوكى دى ليرما
- مذكرة الدوكى دى مدينسيلى
- حياة ماركو بروتو
- تعليقات على حياة شيشرون ومؤلفاته

٦ - المؤلفات الانتقادية :

- متكلمة اللاتينية المثقفة
- قصة القصص
- الرد على الاب پينيدا
- حسامه فى سبيل شنتياقب
- لا پيرينولا

٧ - المؤلفات الفلسفية :

- فى مداواة كل داء
- اسم مذهب الرواقيين ونشأته وفروعه
- الحكم

٨ - المؤلفات الزهدية :

- اول واخفى اضطهادات اليهود ليسوع المسيح
- حياة فراى طوماس دى بيانويبا
- نظرات فى العهد الجديد وحياة المسيح

- في الكلمات التي قالها المسيح لامه المقدسة في عرس قانا في الجليل
- عظة عن الثالوث الاقدس
- خطاب يسوع المسيح ابن الله الى ابيه الازلي في بستان الزيتون
- المهد واللحد
- الفضيلة المحاربة
- مقصد الروح القدس في كتاب الحكمة
- صبر وثبات ايوب الصديق
- عناية الله
- حياة القديس بولس الرسول

٩ - الترجمات النثرية

- رسالة الكردينال قيصر بارونيو
- رسالة اوربانوس الثامن
- المدخل الى حياة التقوى
- رسائل سينيكا

١٠ - المؤلفات الصغرى المختلفة

نضرب صفحا عن تعداد هذه المؤلفات الكثيرة لقلة اهميتها بالنسبة الى المؤلفات السابقة

الفصل الاول

المؤلفات الهزلية

كان كيبيدو بطبيعته ميالا الى المرح والهزل. فلا غرو ان يستهويه هذا النوع من الادب. وهو اول نوع جرى فيه قلمه فى سن الشباب وكان نظره الثاقب ينفذ الى كل ما حوله فيجد ابوابا كثيرة تستدعى الهزل والتهكم ، ومعظم مؤلفاته الهزلية من منتوج الشباب لكنه ظل يحن فى باطنه الى هذا الفن بعد ان بلغ طور الكهولة كما سنرى عند الكلام مفصلا عن هذه المؤلفات وهى:

نسب البلهاء

ـ يعد هذا اول مؤلفات كيبيدو اذ كتبه سنة ١٥٩٧ وهو لم يزل طالبا فى جامعة القلعة . وقد نحا فيه نحو مؤلفات سابقة فى الموضوع نفسه اولها «نسب البلاهة» وهو يرجع الى اواسط القرن السادس عشر لمؤلف مجهول. والثانى «الفلسفة السرية» للكاتب بيريث دى مويا المطبوع فى مدريد سنة ١٥٨٥ فى فصله الثانى عشر .

والموضوع طريف للغاية، فبعد ان يشرح كيبيدو بفكاهة معنى كلمتى «نسب» و «بلهاء» ويبين انواع البلاهة يقول «بعد ان فهمت هذا يتضح لك ان المقصود معرفة اصل البلاهة وما خلفته من اولاد واحفاد» فيذكر ان اصلها هو «الوقت المفقود» الذى تزوج «بالجهالة» ـ ثم يضيف الى ان «الشباب الأغض» تزوج «بالمعصية» فخلف ثلاثة اولاد: «ما كنت ادرى» و «ما كنت اظن» و «ما كنت ارى» .

وعلى هذا المنوال ينسج بقية الكتيب حتى يصل فى هذا النسب الى البلاهة ومن بعدها الى ما تخلفه من ويلات ومصائب.

فالكتيب اذاً هزلى فى ظاهره اخلاقى فى باطنه له مغزى ادبى عميق. وهو فى الواقع تحليل نفسانى دقيق دل فيه كيبيدو على دقة الملاحظة والاصابة فى الاستنتاج ومقدرة فى الغوص على الخفايا النفسية لعرضها واضحة على بساط النقد الاخلاقى وفى آخره يعرض فكرة طالما رددها فى مؤلفات اخرى اذ يقول: «لان الرجل الذى ارخى العنان لشهواته وانغمص فى المعاصى منذ ان بلغ الرشد ليعجز عن التوبة فى وقت قصير. اذ ان من يحمل الى المستشفى وكانت هذه صفاته لا يدخله على رجله وانما يحمل اليه حملا فكأن المعاصى هى التى تتركه وليس هو الذى يتركها».

قران الزواج بالشباب

ـ وهى مقالة قصيرة كتبها حسبما يظهر فى سنة ١٥٩٧ ايضا ونحا فيها نحو المؤلف السابق . ولها مغزى اخلاقى مثله اذ يرمى بها الى تبيين العواقب الوخيمة التى تنجم عن الزواج

الذى لا يسبقه التفكير الكافى بحيث يجعل «الندامة» آخر الاحفاد الذين اعقبهم هذا القران .

اصل الحماقة وحدودها

ـ كتبه فى سنة ١٥٩٨ وهو مؤلف حلو الفكاهة عميق المغزى تعقب فيه الكثير من العادات الاجتماعية الشائعة حتى يومنا هذا فى كثير من البلدان فدل على ما فيها من حمق وسخافة . فالكتيب درس اخلاقى اجتماعى نفيس سكب فى قالب هزلى طريف .

حياة العاصمة والمهن المسلية فيها :

ـ يرجع تاريخ هذا الكتيب الى سنة ١٥٩٩ على الارجح وهو تصوير دقيق لحياة الاشرار والمنافقين فى اوائل القرن السابع عشر، وينقسم الى قسمين الاول عنوانه «من وجوه العاصمة» والثانى «حيل العاصمة» فترك فى الاول رسوما حية لانواع شتى من الناس الذين تعج بهم العاصمة ولهم من ظاهرهم المصطنع حجاب يغطون به مساوئهم. ووصف فى الثانى انواع الحيل التى يلجأ اليها المنافقون والسفلة والمقامرون والمرابون واللصوص وغيرهم لابتزاز اموال الغير .

العقود الزوجية

ـ وهى مقالة ظريفة يلخص فيها بقالب تهكمى طريف الشروط المادية والادبية التى يجب ان تتوفر فى الزوجة .

فانظره يقول فى وسط المقالة تحت عنوان «العيوب التى تطاق»:

«اولها ان لا تأتى بـأب او أم او اخـوة او اقارب لانه (اى كاتب العقود) لا يقصد الزواج بهم جميعا بل بالعروس وحدها.

«الا تكون قبيحة فتخيـف ولا جميلـة فتجذب (اى تجذب الآخرين) ولا هزيلة فتؤلم ولا سمينة فتسئم»

المنشور المأمور به فى هذه السنة اى سنة ١٦٠٠ :

ـ وهى مقالة تبلغ ثلاث صفحات بدأ فيها كيبيدو حملته الشعواء على التعابيـر المصطنعة والكـلام المستعمل فى غير موضعه. وسرد فيها ما يربو على مائتى عبارة مستعملة خطأ فى عهده فى الحديث والكتابة . وما زال قسم كبير منها يشين اليوم احاديث ومؤلفات غير واحد من الكتاب. والمنشور على قصره مرجع ثمين لدرس تطور اللغة الاسبانية. وقد اتخذ لمقالته هذا العنوان لكثرة المناشير الرسمية فى ذلك العهد حول مواضيـع تـافهـة

المناشيـر والتعريفـات العامـة :

ـ وهو كتيب وضعه كيبيدو سنة ١٦٠٠ وعدد فيه الكثير من العيـوب والمساوىء والعـادات المتأصلة فى الافراد ناعتا اصحابها بالبلاهة والحمق. وهو على صورته التهكميـة اللاذعة ينبىء كغيره من مؤلفات كيبيدو بدقة ملاحظته. ومن ظريف اقواله فى هذا الكتيب :

«من بعث بخادمه فى حاجة واستبطأه فخرج الى الباب او

النافذة كأنه يحمله بذلك على الاسراع نحكم عليه بالتوبة والجهر بذنبه والا حكمنا عليه بالحق».

«من يتمخط فى منديله فيخفضه محدقا طويلا بما تساقط فيه كأن ما خرج من منخاره در ثمين يود ان يتناول ثمنه نحكم عليه بان يعتبر عضوا فى اخوية الحمقى»

وعلى هذا النمط يسير الكاتب فى تلقط الكثير من الهفوات الاجتماعية وقد حاز هذا المؤلف على صغره اذ لا يتجاوز ست صفحات شهرة واسعة وادرج القصصى الكبير ماتيو البيان مقاطع منه فى قصته «قزمان الفرج» . ونقل عنه الروائى سالاس باربادیو بعض المقاطع فى روايته «ايسطاسيو الفطن»

منشورات الخيبة ضد المقرمزين :

ـ وهى مقالة قصيرة حمل فيها على الشويعرين. وقد ادرجها فيما بعد منقحة فى قصته حياة الشاطر. ويرجع تاريخ تاليفها الى سنة ١٦٠٠

رسائل فارس الكلابة :

ـ وهى مجموعة تتضمن خمس وعشرين رسالة يعتقد بعض النقاد انها تستند على اساس واقعى من حياة كيبيدو فى طور الشباب . ويرمى المؤلف فيها الى القاء درس فى حفظ المرء ماله من السائلين والسائلات. وفيها من ضروب التهكم اللاذع ما يذكرنا ببعض رسائل البخلاء فى العربية . ويقدر انها كتبت حوالى سنة ١٦٠٦ لكنها لم تطبع حتى سنة ١٦٢١ مع انها راجت مخطوطة رواجا كبيرا .

وقد اكتسبت هذه الرسائل شهرة واسعة وظل اصدقاء كيبيدو مدة يحيونه بلقب «فارس الكلابة» . كما ان اثرها فى المسرح الاسبانى كان كبيرا فكتب كيبيدو نفسه مسرحية قصيرة حملت ذات العنوان واقتبس منها الروائيون لويس كينيونيس دى بينابنطى وهوث إى موطا وكانيثاريس وغيرهم فى عدة مؤلفات مسرحيات. كما انها نقلت الى اللاتينية والفرنسية والالمانية . وصادفت دائما رواجا كبيرا.

وااننا ننقل هنا مقطعا ظريفا افتتح به كيبيدو هذه الرسائل تحت العنوان الآتى: «رياضة يومية يجب على كل عضو من اخوية الكلابة ان يقوم بها ليخلص ماله فى ساعة السؤال التى هى شر من ساعة الحمام» قال :

«حين ينهض من الرقاد عليه ان يتلو الصلاة الآتية: «ياسيدى يسوع المسيح انى اشكرك شكرا وافرا وان كنت من فرسان الكلابة لانك سمحت بان يدعنى السائلون انام واعدك وعدا ثابتا بان لا اعطى ولا اسلف ولا اعد لا بالقول ولا بالفعل ولا بالفكر» .

وعند ما يجلس للطعام عليه ان يقول: «تبارك الله تعالى الذى اعطانى اكلا لا اكلة» .

وحين يأوى الى فراشه يقول: «مبارك انت يا الله اذ سمحت لى بان اتعرى قبل ان اعرى». ولن ينام ملء جفونه لئلا يضيع عليه شىء» .

براءة الزمان :

ـ وهى مقالة تبلغ ست صفحات يرجع تاريخها على الارجح الى سنة ١٦١١ وقد جمع فيها معظم ما جاء فى المقالتين

السابقتين «المناشير والتعريفات العامة» و «منشور الخيبة ضد المقرمزين» بعد ان اعاد النظر فيه فجاء بحلة جديدة فاقت حلته الاولى. واننا لنقتطف منه المقاطع الآتية :

«بعد الاطلاع على هذه الكثرة من الشعراء الذين سمح الله بهم عقابا لنا على ذنوبنا نأمر بانفاق الموجودين منهم وبألا ينبت غيرهم منذ الآن فصاعدا ونمنحهم سنتين لتنفيذ هذا القرار والا لوحقوا كما تلاحق الجراد» .

«ايضا نعلن وننبه ملوك هذا العالم وعظماءه الا يعتقدوا انهم اعظم ما فوق البسيطة وانما اعظمها الحر الذى يكشفون رؤوسهم جميعا امامه بينما العظماء منهم يمكثون مغطى الرؤوس امام الملوك .

«وايضا حيث نرى ان لا احد اليوم يقول: «هكذا سكت عنه فلان» بل «هكذا قاله فلان» نامر بانشاء منبر للسكوت كما توجد منابر للكلام » .

كتاب كل الاشياء وكثير غيرها :

ـ ان هذه الرسالة التى تبلغ صفحاتها السبع ترجع الى حوالى سنة ١٦٢٧ اى الى عهد الكهولة والنضوج الفكرى التام . ويتجلى ذلك فى اسلوبه الهادىء المتزن وغلبة التهكم على الظرافة وعناية فائقة بالمبنى وهى كلها من ميزات انتاجه الادبى فى طور الكهولة . وقد توخى فى هذه الرسالة التهكمية بظاهرها التصدى للخرافات التى كانت ادمغة العامة محشوة بها فى عهده تغذيها اساليب المشعوذين وحيلهم ، واستئصال الاخطاء التى كانت

تشين كثيرا من العلوم المفيدة وفضح المنكرات التى كانت ترتكب فى الدوائر القضائية والعيوب اللاحقة ببعض المهن وادعاء العلماء الكذبة وتطهير اللغة الاسبانية مما علق بها من استحداث شائن على يد اتباع غونغورا ومدرسته وكان التصنع اللفظى cultismo الذى استحدثته المدرسة المذكورة قد بلغ اوجه حوالى سنة ١٦٢٦ واكثر ما كان تسربه بين النساء . فاسمع كيبيدو يقول متهكما عليهن : «متى سألت المرأة يجب ان تعطى مقابلة لا جوهرة ؛ وان مدحت فلتمدح لنظرياتها وآرائها لا بقوامها ووجهها ولتحتل مكانا فى المكتبات لا فى القلوب .

والفصل الاخير يستلفت النظر خاصة بتهكمه اللاذع وقد توجه بعنوان «لمعرفة جميع العلوم والفنون الآلية والحرة فى يوم واحد» . ومن جملة ما يقول فيه :

«ان اردت ان تعرف جميع اللغات فتكلم بها امام من لا يفهمها ونجاحك مضمون».

«ان احببت ان تكون طبيبا مشهورا فعليك ببغلة جميلة وخاتم من الزمرد فى الخنصر وقفاز مطوى ورداء طويل فان فعلت ذلك فأنت طبيب ولو لم تر قط كتابا . اما ان سرت على قدميك فلست بطبيب ولو كنت جالينوس . اجل انها لمهنة علمية هذه التى تقوم على البغلة».

«ان اردت ان تكون محاميا احفظ على ظهر قلبك اسماء الكتب وبعض المقاطع. وليكن عندك خاصة فى مكتبك كتب ضخمة وان كانت قصصا وخرافات اذ المهم ان تشغل مكانا واسعا وبعض ملفات دعاوى وان اضطررت الى شرائها من عند البقالين وان

اوردت كلاما للغير واجبرت على ذكر صاحبه فقل انه لكارولو مولينيو Corolo Molineo قرأته قبل ان تحرم كتبه وهكذا لن يتاح لهم التحقق من صحة ما تقول» .

فكيبيدو كما ترى قد حاول بتصويره هذه العيوب التى تشين معاطاة المهن الحرة فى عصره ان يفضح الكثيرين من المشعوذين المدعين الذين لا تتوفر فيهم الكفاءات اللازمة فاكتفوا بالمظاهر الخلابة التى تغرى الطبقة العامة وتخدعها فتقع فى حبائلهم .

الفصل الثانى

المؤلفات القصصية

حياة الشاطر ضون بابلو :

لم يكتب كيبيدو سوى قصة واحدة وهى «حياة الشاطر ضون بابلو». وتنتمى الى النوع المعروف باسم « قصص الشطار الذى راج رواجا كبيرا فى اسبانيا فى اواخر القرن السادس عشر واوائل السابع عشر . وقد نقلها الى العربية وقدم لها بالكلام مفصلا عن نشأة ذلك الفن فى اسبانيا مؤلف هذا الكتاب .

اما تاريخ ظهورها فلم يحدد بالضبط وانما يعرف تاريخ طبعتها الاولى وهو عام ١٦٢٦ ويقدر النقادة لويس استرانا مارين انها كتبت بين سنتى ١٦١٠ و ١٦١١ وهاك ملخص القصة :

كان «الشاطر» بابلوس ابن احد الحجامين فى مدينة شقوبية وكانت امه راقية قوادة واخوها لصا . اما هو فدخل فى خدمة احد الفتيان الاغنياء واسمه ضون دييغو كورونيل وبعد مدة أرسلهما والد هذا واسمه ضون الونصو كورونيل الى مدرسة الاب كابرا لكن هذا كان يهلك تلامذته جوعا . فهزل التلميذان

وضعفا وبلغ امرهما الى مسمع ضون الونصو فأخرجهما من تلك المدرسة واعادهما الى داره ليسترجعا قواهما المنهوكة .

ثم توجه ضون دييغو الى جامعة القلعة للدراسة فيها واستصحب خادمه بابلوس الذى قابله الطلاب بضروب من الهزل القذر احيانا . ولم يلبث بابلوس ان امتاز بظرافته وعبثه وحيله الكثيرة .

وذات يوم وصلته رسالة من خاله الذى كان جلادا فى شقوبية يعلمه مفصلا بشنق والده ويدعوه للمجيء اليه ليسلمه ارث ابويه. فغادر بابلوس جامعة القلعة متوجها الى شقوبية . وصادف فى طريقه اليها عدة اشخاص يرمز كل منهم الى فئة معينة من الناس: فمنهم الاحمق الدعى، والجبان المتبجح، والشويعر الغليظ، والمنافق المتظاهر بالعبادة، ولما بلغ شقوبية وجد جثة والده معلقة على الطريق. اما خاله الجلاد فقاده الى داره واعطاه نصيبه من متخلف والديه فبلغ ثلاثمائة دكة (دينار). فأخذها وغادر خاله خفية وذهب الى مدريد .

وكان رفيق رحلته نبيل معدم متعجرف اسمه ضون طوريبيو فأطلعه على اساليب العيش فى العاصمة على حساب الغير. ثم عرفه بجماعة من الشطار فعينوا له حي «سين لويس» ليقوم فيه بحيله. ورغم حداثة عهده بالفن فانه دل على براعة كبيرة . لكنه حدث ان اعتقلت العجوز التى تصلح شأنهم ووشت بهم فأوقفوا جميعا واقتيدوا الى السجن لكن بابلوس رشى السجان فأطلق سبيله .

وحل فى احد المثاوى حيث كانت تقيم فتاة مع امها فحملها

على الاعتقاد بشرف محتده وغناه اذا اخذ يعد خمسين دينارا كانت باقية معه مرات متوالية الى ان بلغ ما عده ستة آلاف والفتاة وامها تسمعان رنين الذهب من الغرفة المجاورة فازدادتا اعتقادا بغناه لكنه اضطر بعدئذ الى قطع علاقاته معها ومغادرة المثوى .

وبينما كان ذات يوم يرافق بعض السيدات وقد اتخذ لنفسه اسم ضون فيليبى تريستان ابصره مولاه القديم ضون دييغو كورونيل وكشف سره . فاتخذ حينئذ زى الفقراء وذهب الى طليطلة. ثم انخرط فى جوقة تمثيلية وعالج التمثيل والتاليف محرزا فيهما بعض النجاح .

لكن الجوقة التى انتمى اليها انفرط عقدها فعاد الى اشبيلية وانصرف الى الخداع والتحيل على رأس جماعة من اشباهه. لكن السلطة لاحقتهم، وحينئذ قر رأيه على الذهاب الى الهند (امريكا) فجاءت النتيجة اسوأ «لانه لا يحسن حالا من يقتصر على تغيير محل اقامته ولا يغير حياته وعاداته» . وهذا مغزى الكتاب .

* * *

ان هذه القصة تعتبر درة ثمينة فى تاج الادب الاسبانى . وقد بلغ فيها كيبيدو ذروة الفن الوصفى الواقعى فترك لنا فى وصف الكثير من المشاهد والاشخاص صورا حية تقصر عن الاتيان بمثلها ريشة امهر المصورين. وقد نقلت الى عدة لغات اوروبية فى القرن السابع عشر نفسه. ومكانتها الرفيعة بين المنتوجات الادبية الاسبانية هى التى حدت بنا الى نقلها الى لغة الضاد

الفصل الثالث

المؤلفات الهجائية ـ الاخلاقية

هذا الميدان هو الذى شاط فيه كيبيدو شوطا كبيرا فلم يجاره قلم ولم تزاحمه يراع ولم يبلغ شأوه مفكر او كاتب فترك للعصور التى تلته اثارا يفخر بها الفكر البشرى . وقد اطلق على معظمها مجموعة اسم «الاحلام» لانه صاغها بهذا القالب . وهى تتفرع الى عدة اجزاء كما سنرى فيما بعد .

وليس اتخاذ الاحلام وسيلة الى الهجاء الاخلاقى والاجتماعى بفكرة جديدة. فقد عرفها بعض كتاب اليونان والرومان ومن جملتهم شيشرون ولوثيانو، وعرفها ايضا الكتاب العرب .

ولم يكن الادب الاسبانى السابق لكيبيدو خلوا منها . فقد اطلع كاتبنا على «نهاية العالم ومجىء المسيح ثانية» للطوباوى هيبوليطو. وعلى «رؤيا فيليبرطو الحياة والموت» للراهب فرنسيسكو دى ابيلا المطبوع سنة ١٥٠٨ وعلى «بلاط الموت» للويس هورتادو دى طوليدو المطبوع سنة ١٥٦٧ وعلى غيرها من المؤلفات. كما انه لا يسوغ ان ننسى اثر «المهزلة الالهية» للشاعر الايطالى دانتى فضلا عن عدد وافر من اللوحات الشهيرة

لكبار مصورى ذلك العهد التى ترمز الى احلام ترى فيها مشاهد من الحياة الاخرى.

وقد بدأ كيبيدو هذا النوع من الانتاج وهو فى السادسة والعشرين من عمره وعاد اليه مرارا بعد ان طعن فى السن لانه كان يرى فيه سبيلا سهلا لاطلاق العنان لفكره الخصب وخياله الفسيح دون التقيد بتصميم ولا خطة مرسومة .

حلم يوم الحشر والنشر :

هذا اول «احلام» كيبيدو فرغ منه سنة ١٦٠٦ واهداه الى الكوندى دى ليموس.

اطبق المؤلف جفنيه ذات ليلة على كتاب الطوباوى هيبوليطو «نهاية العالم ومجىء المسيح ثانية» واذا به يحلم بيوم الحشر والنشر. فيسمع ملاكا ينفخ فى البوق فتخرج الموتى من القبور وتستعيد صورتها البشرية التى كانت لكل واحد فى حياته لتمثل امام محكمة الديان. ويستهل كيبيدو حلمه بقوله:

«تراءى لى انى ابصر فتى يطوف الفضاء نافخا فى بوق وقد ذهب الجهد ببعض جماله. فتطيعه الصخور وتسمعه الموتى. وعلى الاثر اخذت الارض تتحرك واذن للعظام ان تتقدم نحو بعضها البعض. وما ان ولى بعض الوقت (وان كان قصيرا) حتى رأيت الذين كانوا جنودا وقوادا يهبون من لحودهم غاضبين حاسبين ذلك ايذانا بالحرب؛ والبخلاء يتحسرون ويجزعون لئلا يقبض مما فى اياديهم ؛ والمتعجرفين، والنهمين، مع ما فى الصوت من خشونة ، يحسبونه دعوة الى المرح والصيد... »

وتمر امام المحكمة افواج من الناس تضم من جميع الطبقات والمهن والحرف التى يعرفها المجتمع : كتبة المحاكم، بخلاء التجار، نساء جميلات، متزوجات، باغيات، اطباء، قضاة، محامون، خياطون، قطاعو طرق، شعراء، فلاسفة، لصوص، معلمون ، صيدليون، منجمون الخ ...»

ومن اروع ما فى هذا الحلم وصف المحكمة. قال «اما العرش فكان صنعة شاركت فى ابداعها المعجزة والقدرة اللامتناهية وكان الله متجلببا بنفسه ، مشرقا للمصطفين عبوسا للهالكين والشمس والنجوم متلألئة من فمه، والريح ساكتة والماء مضطجعا على ضفافه، والارض معلقة» .

ومن اظرف ما فيه محاكمة الاطباء قال: «وكانت المصائب والطاعون والاحزان مجتمعة على حدة تولول بحق الاطباء . فيقول الطاعون انه اعل المرضى لكن الاطباء هم الذين دفعوا بهم الى ايدى الموت. وتقول الاحزان انها لم تمت قط احدا دون مساعدة الاطباء ؛ وتردد المصائب ان جميع الذين دفنتهم انما كان ذلك بالمشاركة بينها وبين الاطباء ».

والحق يقال ان المحاكمة تبدأ منذ آدم حتى تأتى على مختلف الافراد والجماعات الى ان يمثل آخر الامر امام المحكمة احد المنجمين فيدعى انهم اخطأوا الحساب وان يوم النشر لم يحن بعد حسب اصول التنجيم. لكن الابالسة انقضت عليه فذهبت به الى الجحيم .

وينتهى «الحلم» كما يلى: «وهكذا انتهت الاقامة والمحاكمة ففرت الاشباح الى اماكنها ، واستعاد الهواء نفسه ، وازهرت

الارض وشوهدت السماء ورفع المسيح المصطفين معه لينعموا به».

المأمور القضائي المخبوط

كتب كيبيدو هذا المؤلف في سنة ١٦٠٧ واهداه الى صديقه المركيز دي بيانويفا دل فريسنو اي باركاروطا كما اشرنا الى ذلك في غير موضع . فالمؤلف يتصور نفسه انه زار المأذون كالابريس «وهو كاهن ذو ضمير واسع» فوجده مشغولا باخراج روح شرير من جسم احد المأمورين القضائيين فما ان سأل المأذون عن الرجل واجابة ذلك انه «رجل مخبوط» حتى تصدى الروح الشرير من الداخل قائلا: «لا! ليس برجل! بل مامور قضائي. وبدلا ان يقال «مامور قضائي يسكنه ابليس» اولى ان يقال «ابليس تقمصه مامور قضائي» لاننا في هذه الطغمة من الناس انما نقيم مرغمين. وانا باقامتي فيه سأنقص قدرا بين رفاقي متى عدت الى الجحيم» ونزولا عند رغبة المؤلف اطلق المأذون سراح الشيطان وسمح له بالكلام ، فأخذ هذا يقص عليهما ان الجحيم ملأى بالشعراء والممثلين خاصة . ثم يشير الى المكان الذي يحتله فيها التجار والوزراء والعاشقون والمتزلفون وملتزمو التموين ، والقضاة ، والنساء وبنوع خاص القبيحات والعجائز. ومن ابدع ما في هذا الكتيب المقطع الذي يجيب به الشيطان على سؤال المؤلف عما اذا كان في الجحيم ملوك. قال: «ان الجحيم ملأى بالشخصيات لان السلطان والحرية والحكم تجعلهم ينبذون الفضيلة من وسطهم ويبلغون في مضمار الرذائل اقصاه . فاذا ما رأوا انفسهم موضوع اجلال عظيم من جانب رعاياهم ودفع بهم الكبرياء الى التاله

كادوا يودون التشبه بالالهة . وامامهم طرق للهلاك عديدة واكثر منها من يساعدونهم على الهلاك. فأحدهم يهلك بقساوته والآخر بجشعه والبعض باشخاص آخرين وذلك باستسلامهم الى وزراء السوء » .

ومجمل القول ان كيبيدو نحا فى «المأمور القضائى المخبوط» نحوه فى «حلم يوم الحشر والنشر» وهو الحمل على المفاسد التى كانت تأكل المجتمع الذى يعيش فيه . وقد عرفنا كيبيدو كاتبا اجتماعيا من الطبقة الاولى. وفى هذه السلسلة من «الاحلام» بلغ الذروة فى تبيين مساوىء معاصريه ، متوخيا من وراء نقده التهكمى اللاذع الاصلاح والارشاد .

حلم الجحيم :

يعتبر «حلم الجحيم» من ابرز مؤلفات كيبيدو. وقد قال عنه المؤلف نفسه انه «سكب فيه عصارة دماغه» ويرجع تاريخ وضعه الى سنة ١٦٠٨ حين كان فى الثامنة والعشرين من عمره لكنه لم يعرف حتى سنة ١٦٣١ ويستهله بهذا الوصف الرائع :

«وجدت نفسى فى مكان حبته الطبيعة بهدوء جذاب حيث النظر يتمتع بالجمال دون مكر (تمتع صامت ودون جواب بشرى) فالينابيع فى مناجاة بين الحصى، والاشجار بأوراقها؛ ولعل الطيور كانت تشدو دون ان اعلم بالضبط ان كان ذلك منها منافسة لها او شكرا على انسجام انغامها .

«وحسبك شاهدا على سخافة رغباتنا اننى لم اجد هدوءا فى هذا كله .

فسرحت البصر طامعا فى رؤية طريق القى فيها رفيقا فرأيت (يا للعجب !) طريقين ينبثقان عن مكان واحد ثم يأخذان فى الافتراق كما لو انهما يفران الواحد من رفقة الآخر .

وكانت طريق اليمين ضيقة كل الضيق ؛ ولقلة سالكيها غمرتها الاشواك والعقبات . ومع هذا كله رأيت البعض يسعون لعبورها لكنهم بسبب سيرهم حفاة وعراة كل البعض منهم يتركون على الطريق جلودهم والبعض الآخر اذرعهم وغيرهم رؤوسهم والآخرون ارجلهم والجميع يسيرون وقد شحبت الوانهم واستولى عليهم الهزال. لكننى لاحظت انه لم يكن واحد منهم ليلتفت الى الوراء بل كلهم الى الامام»

ثم يضيف الكاتب انه لا يجد احدا فى هذا الطريق (طريق الفضيلة) ولم ير فيه اثرا لدواليب العربات ولا ذكرا لمرورها ابدا فيه . فحاول الحديث مع سائل لكن هذا اجابه جوابا جافا فساءه ان يواصل السير فى ذلك الطريق ورجع على اعقابه وسلك طريق اليسار. واسمعه يصف لنا ما رأى فيها :

«فرأيت ركبا حف به الوقار وما لا يحصى له عدد من العربات على اختلاف انواعها تحمل من الجمال البشرى ما ينافس الشمس وقدرا كبيرا من الملابس الانيقة الفاخرة والخيل المطهمة والكثيرين من ذوى الحسب الرفيع والساعد المفتول. وانا الذى طالما سمعت المثل القائل: «قل لى من ترافق اقل لك من انت» تقدمت الى عتبة تلك الطريق طمعا منى بالرفقة الطيبة واذا بى دون ان اشعر اجد نفسى انحدر فيه كمن يتزلج على الجليد الى ان التقيت بما كنت احتاج لان كل شىء هنا كان رقصا واعيادا

وحفلات والعابا وملاهى لا كالطريق الآخر الذى كان السالكون فيه يسيرون عراة ممزقى الثياب لقلة الخياطين بينما كان هنا يفيض عنا تجار وصياغون ومحترفون من مختلف الحرف، وعند كل خطوة نصيب مثوى. اما المطاعم فلا عد لها .

وليس بوسعى ان اصف ما استولى علي من الغبطة لمرافقتى قوم على هذه الدرجة من النبل »

وهذه الطريق التى يسلكها السواد الاكبر من الناس على اختلاف طبقاتهم ومللهم ونحلهم هى طريق الجحيم. لكن المؤلف كان فى شك من امرها ولم يخرجه من شكه الا سماعه قائلا يقول:

ـ ألا افسحوا المجال للعشابين

ـ فقلت فى نفسى: أو يمر على هذه الطريق عشابون ؟ الا اننا الى الجحيم سائرون .

وهكذا كان... »

وبعد ان بلغها شاهد جماعات وفيرة من الخياطين والوراقين والسواقين والمتملقين وغيرهم يدخلون ابوابها التى لا تنفتح الا للدخول . ومن الطف ما فى هذا المؤلف تهكمه اللاذع على مدعى النبل وهم منه خالون . وقد جعل الكلام على لسان احد الابالسة موجها الى احد النبلاء المتبجحين بالحسب والنسب :

«ألا فاعرف ان من كان من سلالة السيد (١) او برناردو (٢)

---

١) السيد El Cid يقصد به البطل الاسبانى رودريغو دياث دى فيفار.

٢) يقصد به احد ابطال الاساطير برناردو دل كاربيو.

او غودفريدو (١) ولم يشبههم بل كان فاسقا مثلك فهو متلف للحسب لا وارث له. ان الدماء كلها ـ ايها النبيل ـ حمراء (٢) فتميز بالفضائل؛ وحين اراك عالما او ساعيا وراء العلم اعتقد بأنك من سلالة العلامة . والا فان نبلك كذب قصير يدوم ما دامت الحياة ...

«فمن كان فى الحياة فاضلا فذلك هو النبيل؛ والفضيلة هى وثيقة النبل التى نحترمها هنا. وان كان الفرد من اصل وضيع واستحق ان يقتدى به لفضله وصلاحه فقد جعل نفسه نبيلا واسس حسبا لغيره...

«ثلاثة اشياء تجعل الناس عرضة للسخرية : الحسب ، والشرف ، والشجاعة » .

ثم يواصل «ابليس» الكلام فيحمل على ذوى الحسب الذين لا يأتون عملا مفيدا ويضيعون ايامهم منغمسين فى الملذات الاثيمة ومع ذلك يحسدون من كان وضيع الاصل وبلغ مرتبة عالية بعلمه وصلاحه ... ثم ينتقد انتقادا لاذعا المنكرات التى ترتكب والدماء التى تراق من اجل «الشرف» المبنى على اوهام واعتقادات فاسدة واخيرا يوجه انتقاده للشجاعة بالمعنى المألوف فيقول :

«والحق ان كل ما يفعله الناس وكل ما فعله القادة البواسل الذين عرفتهم الحروب لم يفعلوه عن شجاعة بل عن خوف. لان من يقاتل فى بلاده دفاعا عنها انما يقاتل خوفا من شر اعظم وهو

---

١) هو غودوفريدو دى بويون من ابطال الحرب الصليبية الاولى .

٢) هذا التعبير من باب التهكم لانه يشار فى اسبانيا الى طبقة الاشراف باصحاب الدم الازرق .

ان يؤسر او يقتل ، والذى يغير على الآخرين فى عقر دارهم انما يفعل ذلك غالبا لخوفه من ان يغيروا هم عليه».

وينتهى الكتاب بزيارة المؤلف للوسيفار فى مقصورته حيث يرى الكثيرين يقاسون آلام الجحيم .

العالم من الداخل :

«العالم من الداخل» مؤلف يطغو عليه روح التشاؤم واليأس وهو يعبر عما يستولى على الشبيبة من خيبة ومرارة حين تطلع على ما فى العالم من شر من الداخل والخارج، ويستهله الكاتب بهذا المقطع المملوء حكمة :

«ان رغباتنا فى امور هذا العالم لدائمة التنقل وهكذا تسير بأمل باطل من بعضها الى البعض الآخر دون ان تجد لها موطنا ولا مستقرا. فهى تتغذى بالتبديل وبه تتسلى . وترى فى الشهية مرانا مع ان هذه تنشأ عن جهل الاشياء لانها لو عرفتها حق المعرفة لانقلب ما يرافق بحثها عنها من جشع وقنوط الى كراهية حين تحتقرها تائبة .

«وجدير بالاعتبار ما لرغباتنا من قوة لانها تعد وتقنع بمتعة فائقة فى اللذات والامانى المطلوبة غير انها لا تدوم الا ما دام السعى وراءها . وما يكاد الساعى يدركها حتى يشعر بنفسه فى الحين غير راض ».

ثم يتقدم المؤلف لزيارة «الشارع الكبير» للنفاق تقوده الخيبة بصورة «شيخ جليل بشيبه، منهد الاوصال، ممزق الاذيال دون ان يجعله ذلك موضوع سخرية بل بالعكس جديرا بكل

احترام» . وفى ذلك الشارع يرى حقيقة بعض الحوادث وما هى عليه فى الداخل ومن جملتها : جنازة، وبكاء ارملة، وزهو نبيل وجمال امرأة وكثير من الخدع التى ترتكب خفية .

ولعل اروع ما فى الكتاب المقطع الخاص بالمرأة الجميلة. فالمؤلف يتصور مرورها امامه ويبدأ بوصف قل نظيره فى الابداع . ولا غرو ان تستهويه تلك المرأة بجمالها الفتان . لكن الشيخ المرافق له ـ الخيبة ـ يمسك بكمه ويوبخه على السرعة ويبدأ بتحليل جمال تلك المرأة ويرده كله الى المراهم والاطلية التى تدلك بها مختلف اعضاء بدنها ورأسها. فاسمعه يقول : «اعلم ان اول ما يرتديه النساء عند قيامهن هو وجه وعنق ويدان ومن بعد الالبسة . فكل ما تراه فيها مشترى لا طبيعى» . ثم يبدأ بتعداد الشعر والحواجب والاسنان والاذنين والعينين الخ ... فيرى انها كلها مستعارة ويرد تلك المرأة الى خلقتها الطبيعية فاذا بها مخلوق بشع تشمئز منه النفس .

حلم الموت :

وضع كيبيدو هذا «الحلم» وهو فى السجن سنة ١٦٢٢ وقد قال عنه «اردت ان يكون الموت خاتمة مقالاتى كبقية الامور» .

وملخصه انه بينما كان المؤلف يقرأ بعض ابيات للشاعر لوكر اثيو عادت الى ذاكرته بعض مقاطع من كتاب «ايوب الصديق» واذا به يغفو على هذه الحالة فيرى فى حلمه جماعة من الاطباء والعشابين والجراحين والحجامين وغيرهم، ثم يتبعهم المهذارون والطفيليون والفضوليون واخيرا الموت الذى يقود المؤلف

لزيارة ما وراء القبر، فيمران بمكان حيث اعداء الانسان الثلاثة «العالم وابليس والجسد» يتشاجرون والدينار وهذا يقول لهم انه هو الد اعداء بنى آدم. وعلى هذه الحالة يبلغان الجحيم. وهنالك يستدعى الموت، وقد احاطت به الفتنة ونكران الجميل واللعنات وبلاط الميتات الرمزية (من الحب والجوع والبرد والخوف والضحك)، يستدعى الموتى فيهبون من رقادهم ويمر امامه الاشخاص الوهميون الذين تتردد اسماؤهم فى الاقاويل والامثال الشعبية مثل «خوان دل إنثينا» و «الملك الذى كلب» و «ماتيو بيكو» و «بيروغرويوا» و «ضون دييغو الليل» وغيرهم.

وابلغ ما فى الكتاب تهكمه اللاذع على الاطباء ولعله من اقسى ما قيل بحقهم على ممر العصور، لكن كثرة التلاعب بالالفاظ تكاد يجعل تعريب ذلك المقطع مستحيلا لانه يفقد رونقه وروحه. وكذلك وصفه لضون دييغو الليل الذى يجوز ان يسمى «اشعب الاسبان».

الفصل الرابع

المؤلفات الاخلاقية

يتناول هذا النوع مؤلفين اثنين من خيرة ما دبجته يراع كيبيدو وهما : «خطاب جميع الابالسة» و «ساعة الجميع والحظ العاقل».

خطاب جميع الابالسة :

وضع كيبيدو هذا المؤلف سنة ١٦٢٧ وطبع لاول مرة فى مدينة خيرونا سنة ١٦٢٨ . ورغم اوجه الشبه بينه وبين «الاحلام» لا يمكن ادراجه ضمنها لانه بحث فلسفى سياسى عميق اكثر منه هجائيا اخلاقيا، وقد انبعثت فكرة هذا الكتيب عن الجزء الاول من «سياسة الله» للمؤلف نفسه وتجلت بأبرز مظاهرها فى مؤلفه «حياة ماركو بروتو» وينكشف المشهد الاول من «خطاب جميع الابالسة عن واش وعرافة وفضولى اطلقوا فى قاعة من الجحيم تغمرها الفوضى. واذا بالثلاثة يتقدمون من لوسيفار رئيس الابالسة ليدلوا اليه بنصائحهم مما جعله فى ريبة من امرهم فقام من ساعته. «وبدأ بزيارة مطاميره ليكشف عن حالة السجون

والمساجين والوزراء » . والواشى يسير امامه وكلما مر بواحد من المحكوم عليهم عرض عليه شكواه .

وبينما هو على هذه الحالة اذا بالغوغاء ترتفع ويسمع قرع سلاح ودوى ضربات ونحيب ممزوج بالشتائم والشكوى. فالتفت الى مصدر تلك الجلبة فرأى المحكوم عليهم «يتراشقون بأعضائهم الملتهبة لانعدام الحراب ويترامون بأجسامهم المشتعلة ويتطاعنون بنفس اشخاصهم» . ثم يسمع صوت يوليوس قيصر يعلو اصوات الجميع ليقرع قاتليه . ويليه بروتو وكليتو وسينيكا وغيرهم مدافعين كل عن نفسه . وهنا تفيض يراع الكاتب بالغة اسمى درجات البلاغة فى تقريع العظام على آثامهم. ثم تسمع تأوهات الآباء بلا بنين والذين يحاولون العودة الى الحياة الى ان جعلهم احدهم يقلعون عن هذا العزم بعد ان قص عليهم مساوىء العالم ومخازيه؛ وتروى حيل واحد كان يحترف الوساطة فى التزويج ونكبات الفرنسى موص ومناقشات مؤلفى التاريخ والسياسة الخ.. وبعد عدة مشاهد أخرى ينتهى هذا العرض ببراءة من لوسيفار لابالسته يعين لهم فيها واجباتهم ويهدد كل محكوم عليه يخالف ارادته . وينتهى الكتاب بالمقطع الآتى : «وحينئذ اختفوا جميعهم خشية العقب، وانسحب لوسيفار الى ليله القديم تاركا لعائلته هلعا ولممتلكاته شريعة وللاناس عبرة بحيث اذا اعتبرنا بها امكننا ان نقول «رب سم كان دواء» .

ساعة الجميع او الحظ العاقل :

وضع كيبيدو هذا الكتاب بعد ان بلغ الكهولة وعركته الحياة ونضجت آراؤه وافكاره وقد ضمنه مجموعة لوحات تمثل عادات

عصره وحياته السياسية وكثيرا ما يتعرض لمشاكل الدولة التى كانت تسترعى اذاك (سنة ١٦٣٥) انتباه الرأى العام . ولا يحجم عن توجيه الانتقادات اللاذعة لما يعتبره جديرا بها فى الحياة الاسبانية العامة، ولذلك فقد وضع الكتاب باسم مستعار جاعلا المؤلف من مدينة دواى من بلاد فلانديس الفرنسية . وعند ما سجن كيبيدو للمرة الاخيرة صودرت المخطوطة ثم اعيدت له بعد اطلاق سراحه فنقحها واضاف اليها سنة ١٦٤٤ فصلا ضد اليهود عنوانه «جزيرة المونوبانطوس» وفى سنة ١٦٤٥ قبل وفاته ببضعة اشهر دفعها الى كاتبه لينسخها لكنه توفى قبل ان يرى الكتاب مطبوعا . ويتلخص الموضوع فيما يلى :

ذات يوم امر «جوبيتر» الآلهة بالحضور لديه . فأخذوا يفدون الى ان تم عقدهم واذاك ارسل جوبيتر فى طلب «الحظ» فأتى به على جناح السرعة . ووجه اليه اب الآلهة الخطاب الآتى:

«ايها الارعن ! ان ضروب الحماقة والطيش والشر التى تصدر عنك لتحمل الناس على الاعتقاد بأنه لا آلهة وان السماء خالية وانى انا اله لا عبرة به . وهم يشتكون من انك تجازى الجرائم بما يستحقه الصلاح وتكافىء الرذيلة بما هو حق للفضيلة وانك تضع على منصة القضاء من هو اهل ان يرفع على اعواد المشانق وتعطى الوجاهات لمن يستحق ان تقطع اذناه وتفقر وتذل من كان من حقك ان تغنيه وترفعه » .

فرد عليه الحظ بأن الذنب فى كل ذلك ليس ذنبه وأيدت كلامه «الفرصة» التى كانت حاضرة اذاك لانها تسير دائما فى ركابه . وعندئذ فاه جوبيتر بالكلمات الآتية :

«انكما على حق انت وهذه التى تخدمك فى الكثير مما ذكرتماه ولكنى ارضاء للناس قررت قرارا حاسما ان ينكشف العالم فى يوم وساعة معينين وقد اعطى كل واحد من الناس ما يستحقه» وتقرر ان يكون موعد تنفيذ هذا القرار الساعة الرابعة زوالا من يوم ٢٠ يونيو سنة ١٦٣٥ . وهنا يبدأ المؤلف بعرض مختلف صور الحياة وقد داهمت اصحابها «الساعة» فاذا بأحوالهم تنقلب كلها رأسا على عقب : فالكذوب يصبح صادقا ، والمثرى المحتال فقيرا والمجلود جلادا والجلاد مجلودا وقس عليه. وعلى هذا النسق يستعرض المؤلف :

طبيبا ، ومجلودا ، ودار وزير لص ، ومرابيا وجواهره ، ومهذارا ، وشاعرا من المتصنعين فى المبنى (اعداء كيبيدو) ، وخادما غير أمين ، وسيدا رفيعا يزور سجونه ، ونساء مختلفة يسرن فى الشارع ، وغنيا بعد الاكل ، وطماعين ومحتالين ، ومحاميا مع المتداعين ، والخمارين ، وطلاب الوظائف ، والمستقرضين ، والكيماويين ، فضلا عن عدة صور أخرى ذات مغزى سياسى منها : ايطاليا الامبراطورية ، والهولانديون ، ودوق فلورنسا الاكبر، والفرنسيون الثلاثة والاسبانى. وجمهورية البندقية، والدوكس ومجلس شيوخ جنوة ، وسلطان الاتراك ، والعبيد ، وملك انكلترا ، وجزيرة المونوبانطوس وغيرها .

فمجرد عرض هذه العناوين يدل على سعة خيال كيبيدو وخصب قريحته. ومطالعة «ساعة الجميع والحظ العاقل» باللغة الاسبانية من الذ المتع الفكرية التى يمكن للمرء ان ينالها لان كيبيدو ذو قلم لا يبارى فى هذا الميدان، الهزلى بظاهره، الجدى

بمغزاه . ومن الصعب جدا تعريبه دون ان يفقد روعته كمعظم مؤلفات كيبيدو التى يقوم الكثير من قدرها على براعة انشائية مستمدة من خصائص اللغة الاسبانية نفسها . وعلى كل حال فاننا ننقل هنا الفصل الحادى والعشرين الذى عنوانه: «ثويلة من طلاب الوظائف» قال:

«وكان فى انتظار السيد المكلف باسناد احدى الوظائف ثويلة من اثنين وثلاثين طالبا لها . وكان كل منهم يرى فى نفسه من الميزات بقدر ما يرى من النقائص فى الآخرين اجمعين. وكانوا يستعيذون فى قلوبهم من بعضهم البعض وكل منهم يقول فى نفسه ان الآخرين لمجانين ووقحون بسعيهم وراء ما هو من حقه وحده. وكانوا ينظرون الى بعضهم البعض بحقد جهنمى وقد امتلأت قلوبهم افاعى ويهيئون اهانات وعيونا ليتبادلوا الافتراءات، وكلما تحرك الباب ارتعدت فرائصهم خوفا وقاموا وقعدوا كمن استولت عليه نوبة عصبية... ولا يمر خادم الا ونادوه «يا مولاى» وبالغوافى مدحه وتعظيمه .

«ثم مر السكرتير كالسهم الخاطف فاذا بهم يطوقونه خشعين وقد انحنت اجسامهم كأنهم جلسوا القرفصاء . لكنه تخلص منهم بقوله «عفوا انى ماض على عجل» .

ثم يصف الكاتب حديث السيد مع سكرتيره بشأن اسناد الوظيفة الى احد الطالبين لها وأعرب له عن خوفه من اغضاب واحد وثلاثين منهم ما دامت الوظيفة واحدة والطالبون اثنين وثلاثين . لكنه اخيرا امر بادخالهم وقال لهم :

«ان الوظيفة واحدة وانتم كثيرون وانى اريد ان اعطى

الوظيفة لواحد وان يبقى الآخرون راضين» . وبينما هو يقول هذا ادركتهم الساعة . وأسند السيد الوظيفة لاحدهم ثم رتب البقية لتسند اليهم بالتتالى فى حالة بقائها شاغرة . وفى الحال أخذ هؤلاء الورثة المقبلون يشتهون الموت بعضهم لبعض ويدعون المشانق والاوبئة والموت فجأة والزنطاريا الخ... وما كادت تمر هنيهة على ما قاله لهم حتى اصبح كل من الورثة المقبلين يرى ان موروثيه قد عاشوا عشرة اضعاف عمر المتوشلح بحيث كان العاشر منهم يرى ان دوره لن يأتى الا بعد خمسمائة سنة على الاقل» .

واننا نقتطف ايضا بعض المقاطع من الفصل السادس والثلاثين الذى عنوانه «حرية العبيد» .

«لا سبب لعبوديتنا ـ والكلام على لسان احدهم ـ الا اللون مع ان اللون عارض لا جريمة . والحق يقال ان مستعبدينا لا يضفون على ظلمهم لونا غير لوننا... ولقد نبغ من بيننا فى مختلف العصور عدد لا يستهان به من رجال السيف والقلم والفضيلة والقداسة ولا حاجة بى الآن الى ذكر اسمائهم... ان نساءنا يرضين بوجوههن الفاحمة ويعرفن ان يكن جميلات فى الظلمة... نحن لا نكذب حقائق الزمن... فلماذا اذاً نذوق مرارة الذل والعقوبة » ؟

ومن هذه المقتطفات نرى ان كيبيدو سبق عصره فى كثير من نواحى التفكير السياسى والاجتماعى وارتفع بقلمه الى اجواء لم يبلغها واحد من معاصريه وضمن كتابه هذا كثيرا من الآراء التى تبنتها الاجيال التالية فكان سباقا فى كل ميدان .

الفصل الخامس

المؤلفات السياسية

رأينا فى القسم الاول من هذا الكتاب كيف ان كيبيدو لم يقف من سياسة عصره موقف المتفرج فحسب بل خاض غمارها فى احرج ظروفها وعرك يابسها ولينها وخالط الحكام والوزراء والسفراء والملوك وتقلب بين رضى اولياء الامر وسخطهم واطلع على اسرار السياسة ودخائلها فاكسبته هذه التجارب حكمة واسعة وأوحت اليه آراء صائبة قيمة. وصرف قسما وافرا من وقته فى التاليف عن السياسة والحكم فبلغ نيفا وثلاثين كتابا او رسالة ما الفه فى هذا الموضوع وهو فى كلها يظهر بمظهر الحكيم المجرب والوطنى المخلص والمسيحى المؤمن . فجاءت آراؤه السياسية نتيجة هذا المثلث تتشابك فيها وترتبط السياسية بالدين والفلسفة والاخلاق ولقد احسن احد المؤرخين حين قال عنه : «ان مذهبه السياسى يرمى الى هدف اخلاقى وهو الحض على احداث رد فعل شديد فى المجتمع الاسبانى. كما ان مذهبه الاخلاقى يرمى الى هدف سياسى وهو توجيه ميول شعبنا فى مجارى غير التى كانت تجرى فيها. ففلسفته على وجه الاجمال

جاءت بمثابة انبعاث الروح التقليدية واحتجاج صارخ من جانب الفكر الاسبانى الصرف على انحطاط العوائد وفساد الحكام». وقال البحاثة الفرنسى ميريمى ، الذى صرف سنين طويلة فى درس الادب الاسبانى: «ان ما يميز كيبيدو ويشرفه هو اعتقاده حتى النهاية بأن العدل والفضيلة والحق هى أسس السياسة . وتعليمه بأفصح اسلوب عرف حينئذ الاعتدال والاخلاص للواجب واحترام الضعفاء، ووضعه فى خدمة هؤلاء ـ بعد ان عجزت عن الدفاع عنهم اقيسة السكولاستيكيين الباردة ـ حرارة نفسه المتقدة ومواهب فكره الكثيرة . فهذا الشغف بالعدل وهذا العطف على الودعاء والمساكين يفسحان فى وجهه الطريق ليعود فيلتقى، من فوق سفسطات مكيافيلو والمماحكات المذهبية، مع مذهب الانجيل الصافى...»

هذا وان آراء كيبيدو السياسية مشتتة بين الكتب والرسائل التى ألفها فى الموضوع. لكن اثنين منهما تضمنا بنوع خاص عرض تلك الآراء وهما «سياسة الله وحكم المسيح» و «حياة ماركو بروتو» . ولذلك نرى من الواجب ان نخصهما بشىء من التفصيل دون ان نهمل الكلام عن مؤلفاته السياسية الاخرى .

سياسة الله وحكم المسيح :

ينقسم هذا الكتاب الى قسمين الاول منهما مهدى الى الوزير الكوندى ـ دوكى دى أوليفاريس والثانى الى البابا اوربانوس الثامن .

والقسم الاول شرع بوضعه فى صيف سنة ١٦١٧ وفرغ

منه فى شهر مارس من سنة ١٦٢١ وتناقلت الايدى نسخة مخطوطة ونقل الى الايطالية والفرنسية قبل ان يطبع بالاسبانية وفى سنة ١٦٢٦ صدرت فى سرقسطة الطبعة الاولى. اما القسم الثانى فلم يطبع حتى سنة ١٦٥٥ اى بعد وفاة كيبيدو بعشر سنوات .

وقد استحدث كيبيدو فى مؤلفه هذا اسلوبا جديدا طريفا. فقسم القسم الاول الى اربعة وعشرين فصلا والثانى الى ثلاثة وعشرين فصلا وبعد ان يعرض عنوان كل فصل يصدره بآية او عدة آيات من الكتاب المقدس وخصوصا من الانجيل ثم يأخذ بتحليل تلك الآية مستخرجا منها الامثولة السياسية التى يريد تقديمها الى الملوك والحكام . وهو والحق يقال جرىء كل الجرأة فى القول لا يهاب نقدا ولا انتقادا ويصوب سهامه اللاذعة الى كل صدر خبيث غير عابىء الا بنشر فكره السديد . واكثر ما يكيل لوزراء السوء الذين يحولون بين الملك وشعبه ويسلبونه حقوقه بحجة التخفيف عن عاتقه ويتصرفون بالرعية حسبما طاب لهم .

وهو يستهل القسم الاكبر بالكلام التالى : «الى البابا وات والاباطرة والملوك ـ ان الله جل وتعالى دفع بعباده الى عنايتكم لا الى هواكم واذ اعطاكم الدول والممالك اعطاكم عملا وجدا مشرفا لا راحة وعجرفة . ان من عهد اليكم برعاية الشعوب سيحاسبكم عليها ان جعلتم انفسكم اربابها وتلبستم بلباس الذئاب. فان كان قد جعلكم آباء فدخلتم أسيادا انقلب عليكم ذنبا ما كان معدا لينيلكم الثواب والاجر ، وصارت رتبتكم جريرتكم».

ويبدأ القسم الثانى بالكلمات الآتية: «لم يكن اصل الملكية

بين شعب الله شريفا ولا مشروعا . لان اصلها هو ملل ذلك الشعب من صاحب الجلالة الازلية وعدله ومساواته».

وفى كلامه عن الملكية يميل دائما الى التوفيق بين سلطة الملك المطلقة وحقوق الشعب. ان السلطة فى رأيه مصدرها الله. وما الملك الا نائب الشعب لتحمل اعبائها، ولذا نراه يقول بكل جرأة للملك فيليب الرابع: «ما انتم ايها الملوك سوى فعلة تستحقون بقدر ما تشتغلون». وفى مكان آخر: «ان تيجان الملوك مصنوعة من اشواك وان ظهرت عسجدية ـ ان الصولجان لاكثر حاجة من المحراث الى عرق الجبين، بل الى عرق ممزوج بالدم.. من ينصحكم ايها المولى بأن تضيعوا فى مطاردة الوحوش الساعات التى يحتاج اليها المظلومون انما يود ان يصطادكم لا ان تصطادوا انتم» . وفى غير مكان يقول :

«ان الملك الذى يستسلم للكرى مطمئنا الى ما حوله انما يستسلم لكرى لا يرضاه الموت نفسه بأخ وينكر قرباه . وانما له قرابة مع الهلاك والجحيم . ان الملك هو السهر. فمن ينم لا يملك، والملك الذى يغمض عينيه يعهد بحراسة نعاجه الى الذئاب والوزير الذى يحرس رقاد الملك لا يخدمه بل يدفنه ، ولا يريحه بل يذله. فهو يحرس كراه لكنه يضيع عليه ضميره وشرفه...

ان الملك الذى ينام يحكم بين الاحلام وفى احسن الاحوال يحلم بأنه يحكم...»

فالملك الصالح اذاً فى رأيه هو الذى يخدم بلاده ولا يستثمرها ما دام «الملك قياما بواجب لا موضوع لهو» وتاجه «حاجات شعبه». وعليه ان يحسن معاقبة وزراء السوء والا كان

مسؤولا عن ذنوبهم. وان يكون سمحا متواضعا نزيها، لا يعرف الكلل فى خدمة شعبه والسهر على مصالحه .

وقد احدث هذا الكتاب عند صدوره ضجة كبيرة فى جميع الاوساط. وعده الكثيرين حملة موجهة ضد الوزراء مع ان المؤلف تناول فيه اساليب الحكم ووسائله على وجه الاجمال. وان غصت صفحاته بعبارات التذكير للملوك والتهديد لوزراء السوء الذين ذاقت اسبانيا الامرين من استبدادهم على ملوكهم فى ذلك العهد.

وتبارى النقادة من كل جانب، وقد دفع الحسد الكثيرين منهم، بعد أن رأوا ما احرزه كيبيدو بكتابة هذا المؤلف من ازدياد الشهرة وتعاظم المرتبة، يكيلون له الاهاجى والانتقادات اللاذعة لكنه لم يأبه لها واقتصر على الرد على انتقادات الراهب اليسوعى الاب بينيدا لاعتباره اياها وحدها جديرة بذلك. وقد قال فى مطلع الرد ما يلى: «انى ارد على الحكيم الذى نبه (اشارة الى الاب بينيدا) اما الباقون الذى ينبحون فانى ادعهم يلهون فى العتمة الى ان يذهب العواء والفحيح بأدمغتهم» .

وحاصل القول ان «سياسة الله» من اروع مؤلفات كيبيدو واعظمها قيمة. وانها وان كان الكثير من فصولها قد اصبح اليوم لا قيمة عملية له لاختلاف أنظمة الحكم ستبقى بمعظمها امثولة رفيعة لما يجب ان يتحلى به الحكام من اخلاص للواجب ونزاهة فى التصرف وعدل فى التربير. وستبقى المبادىء الاساسية التى اقام عليه نظريته فى السياسة والحكم ثابتة خالدة لانها مستمدة من الكتاب المقدس .

وضع كيبيدو هذا الكتاب سنة ١٦٢١ . وهو عرض مفصل لمساوىء أهل البندقية ومؤامراتهم السياسية وقساوتهم مع اعدائهم وفيه يفضح الكثير من مساوئهم وطرق نفاقهم ومكرهم وما ارتكبوه من فظائع وبنوع خاص اضطهاداتهم «للاوسكوكيس» وهم سكان بعض انحاء كرواتيا على الحدود المجرية .

ويتطرق كيبيدو الى الكلام عن الحوادث التى ادت الى نشوب الحرب التى عرفت فيما بعد بحرب الثلاثين سنة .

وتتخلل سرد الحوادث التى يتحرى كيبيدو الصحة والدقة فى روايتها ملاحظاته الحكيمة وآراؤه السديدة. فاسمعه يقول بعد ان اشار الى عفو الامبراطور عن البوهيميين الذين كانوا قد ثاروا عليه وعاثوا فى البلاد فسادا كبيرا ثم ظفر بهم وعفا عنهم ورد اليهم اموالهم: «وهو تصرف نبيل لكنه بلا جدوى ومن هنا يعرف ان حكم الملوك على الخائنين اكثر خطرا من اسلحتهم واحقادهم لان النفس اللئيمة تتمرد ان رحمت وتذل ان عوقبت» وهو قول يذكرنا بقول الشاعر العربى: «وان انت اكرمت اللئيم تمردا» .

هذا وان الكتاب غير كامل. ولعل كيبيدو كان يفكر بضمه الى مؤلف تاريخى اوسع نطاقا ثم عدل عن ذلك وبقى الكتاب ناقصا

رسالة الملك ضون فرناندو الكاثوليكى الى اول نائب ملكى فى نابولى

فى سنة ١٥٠٣ احتل ملك اراغون فرناندو الكاثوليكى مملكة نابولى وعين نائبا عنه فيها الكوندى دى ريبا غورثا. وكانت

الحالة فـى ايطاليا لـم تـزل مفتقرة الى الاستقرار والمؤامرات الداخلية والخارجية تهدد سلطان الملك الاسبانى. وفى ٢٢ مايو (ايار) من سنـة ١٥٠٨ تلقـى الملك من نائبه رسالة يعلمه فيها بتداخل احد الموظفين البابويين فى بعض الشؤون الداخلية ، وبتداخل أخت الملك نفسه فى قضية اخرى. فأجاب الملك فى الحين مبلغا نائبه ان لا يذعن فى شؤون الدولة لاحد ولا للبابا نفسه الا لملكه وحده. ولا يسمح لاحد من عائلة الملك بالتعرض لتلك الشؤون .

ففى سنة ١٦٢١ كتب كيبيدو تعليقـه على هذه الرسالة وقد برر فى التعليق لهجة الملك فرناندو الشديدة فى معرض كلامه عن البابا مع انه ابن الكنيسة البار واول مـن حمل لقب الملك الكاثوليكى بقوله ان الملك انما كان يحافظ على سلطته وحقوقه المشروعة ولم يتعرض لاى شأن دينى يشتم منه العصيان لرأس الكنيسة المنظور .

وبعد ذلك يتناول قول الملك فى رسالتـه: «واذا شاءت اختنا الملكـة ان تدخل القصر لتحرير هـؤلاء المسجونين فلا تسمحوا لها مهما التجأت اليه من الوسائل لانه لا يمكننا ان نسمح لابن ولا لاخت ولا لاى قريب آخر ان يحـول دون احقاق الحق وأخذ عدالتنا مجراها ومن حال دون ذلك فعقابه محقق ».

فيعلق عليه بمختلف عبارات الثناء والتأييد دالا على حكمة الملك وبعد نظره ونزاهته واخلاصه للسلطة التى تقلدها من الله .

الاخبار الكبرى لما وقع خلال خمسة عشر يوما
او
تاريخ عدة قرون مرت فى شهر واحد
١٦٢١

كان كيبيدو سجينا فى داره فى قرية «برج خوان آباد» لما بلغه فى شهر ابريل (نيسان) من سنة ١٦٢١ خبر وفاة الملك فيليب الثالث وارتقاء ابنه فيليب الرابع عرش اسبانيا وما تلا ذلك من انقلابات خطيرة وابعاد معظم رجال العهد السابق والقبض عليهم ومحاكمتهم واعدام البعض منهم . فاسرع كيبيدو الى تدوين تلك الحوادث وشرع بعمله هذا فى ١٦ مايو من تلك السنة تحت العنوان الذى صدرنا به هذه الكلمة . وقد توخى الدقة والامانة فى سرد الحوادث التاريخية مدرجا فى المحل المناسب ملاحظاته القيمة وآراءه السديدة . متجردا بقدر الامكان من عواطفه وميوله نحو الاشخاص الذين تناولهم بالحديث . ومما جاء فى المقدمة : «انى اكتب ما رأيته بأم عينى لا ما سمعته باذنى انى لا اتوخى صفاء الحقيقة طمعا بالصيت الحسن بل ليكون يراعى نافعا لكم حين يتحدث الى ضمائركم من وراء اللحد، وقد تنحى عن الحوادث، فتصدقوه وتدينوا لى، وانا ميت ومنسى، بالتحذير والتنبيه» .

وقد اشار بالتفصيل الى معظم الانقلابات التى حدثت اذاك وبنوع خاص الى ما جرى لوزيرى فيليب الثالث الدوكى دى ليرما والدوكى دى اوثيدا ، وللدوكى دى اوصونا ومحاكمته وسجنه، وضون رودريغو كالديرون ومحاكمته واعدامه واشار الى ابعاد

الرهبان عن الوظائف السياسية وارجاعهم الى اديارهم للقيام خير قيام بواجباتهم الروحية. وختم الكتاب بترجمة ملخصة لمعظم الشخصيات التى ورد ذكرها فى الكتاب .

ومما يلاحظ ان كيبيدو كان يشير الى الوزير الجديد كوندى دى اوليفاريس بكثير من الاحترام والتفاؤل لكنه ابدل فى الطبعة الثانية معظم العبارات التى نمت بذلك التفاؤل لأن اوليفاريس لم يحقق شيئا من الآمال التى علقت عليه .

لبيب ايطاليا او الفطن الاسبانى :

وضع كيبيدو هذا المؤلف سنة ١٦٢٩ بصورة رسالة موجهة الى الملك فيليب الرابع حاول فيها ان يميط اللثام عن كثير من المؤامرات التى كانت تحاك فى الخفاء وخصوصا فى ايطاليا للحط من السلطان الاسبانى منذ سنة ١٦١٥ . وكيبيدو بحكم المنصب الذى شغله طيلة سنوات عديدة فى ايطاليا الى جانب الدوكى دى اوصونا كثير الاطلاع على خفايا تلك المؤامرات . وهو اشد ما يحمل على فرنسا والبندقية والدوكى دى سابويا ويفضح الدسائس التى كان الجميع ينصبونها لاخراج اسبانيا من ايطاليا وكثير من هذه المعلومات التى يدلى بها كيبيدو فى رسالته هذه احتلت مكانها فى صلب التاريخ العام لتلك الحقبة من الحرب التى عرفت فيما بعد بحرب الثلاثين سنة. والملاحظات الدقيقة والاحكام السياسية الصائبة تتخلل الرسالة شأنها فى كل مؤلفات كيبيدو التى تنتمى الى هذا النوع .

وكما افتتح الرسالة معتذرا عن جرأته فى تأدية النصح

باخلاصه لمليكه ختمها بالعبارة الآتية: «انى لاعرف ان من عادة الجميع ان يكونوا اكثر شكرا لمن يغدق عليهم الثناء منه لمن يؤدى لهم النصح».

أبكم الهذر :

اشرنا فى الفصل السابع من القسم الاول الى الظروف التى نشرت فيها هذه الرسالة سنة ١٦٣٠ . وقد صدرت بالعنوان التالى: «أبكم الهذر، للماذون «كل شىء يعرف». الى حضرتك يا من ترمى الحجر وتخفى يدك» . وهو يقصد به رئيس بلدية غرناطة ضون ماتيو دى ليسون إى بيادما الذى كان من ألد أعداء الوزير الاول الكوندى دى اوليفاريس .

وفى الرسالة يغدق كيبيدو المدائح على الوزير ويشيد بنزاهته واخلاصه ونشاطه وبالفوائد العظيمة التى يعود بها على الامة تخفيض قيمة النقد الفضى. اذ كان هذا التخفيض موضوع انتقادات اعداء الوزير اللاذعة . ويثنى على التدابير الادارية المتخذة والى الاصلاحات الكثيرة ويعزو ما فى العهد من شرور الى الارث لذى خلفته العهود السابقة. ويبلغ به الامر الى القول بأن اوليفاريس لمبالغته فى النزاهة يحرم اقرباءه واصحابه من وظائف الدولة ومنافعها.

ويتخلل هذا كله امر السهام المصوبة الى صدر ذلك العدو اللدود الذى «يرمى الحجر ويخفى يده» .

والرسالة على صغرها وشدة لهجتها الجدلية توفر فائدة تاريخية كبيرة فكأنها معرض تاريخى للضرائب على عهد جملة

ملوك اسبانيين سابقين وعلى عهد بعض الاباطرة الرومانيين .

وفوق الجدل والهجاء والمدح والتاريخ يرفرف دائما فكر كيبيدو الحكمى الذى لا يدع فرصة الا اظهر فيها واسع اطلاعه وعميق نظره . وها نحن ننقل بعض فقرات من هذه الرسالة .

«ان ما يؤخذ من الملوك يضعفهم اكثر مما ينفقونه . وهكذا تلقى على عاتق الحرب تبعة اخطاء السلم المفكك الوصال... ولقد شاهدت خلال الزمن الذى عشته اناسا كثيرين اسقطوا من عليائهم لارتفاعهم عاليا بمدة قليلة زاعمين انهم انما يفعلون ذلك ليرجعوا للملك امواله ويؤدبوا الآخرين . ولقد رأيت ايضا ان مكافأة من يعاقبون المفتنين تكلف الملوك والممالك عشرة اضعاف ما تكلفهم الفتنة نفسها لو فرضنا انها موجودة حقا . ومن هنا استنتج ان العقوبة تكلف وتسلب اكثر من الجريمة نفسها » .

وهذه المبالغة مقصودة من جانب كيبيدو ليبرر ضرب الوزير على ايدى الكثيرين من رجال العهد السابق الذى اثروا فى مناصبهم .

اما عن تأثير هذه الرسالة والرد عليها فقد اشرنا الى ذلك فى الفصل السابع من القسم الاول .

زيارة وتشريح رأس الكردينال ارماندو دى ريشيليو

١٦٣٥

وضع كيبيدو هذه الرسالة التهكمية سنة ١٦٣٥ . وخلاصتها ان جاك دى بيلى رئيس دير القديس ميخائيل جمع اعضاء مدرسة

مونتبليه الطبية تحت رئاسة الطبيب اندريس بيساليو . ولما اكتمل عقدهم خطب فيهم جاك دى بيلى قائلا ان المرض الفرنسى مصدره احد الرؤوس ولا بد ان يكون هذا رأس الوزير ريشيليو. وقر رأى المدرسة على اكتشاف النقطة التى استقر فيها المرض من رأس الوزير المذكور فقام احدهم بزيارة الراس وتشريحه وهنا يأخذ الكاتب بسرد مساوىء ريشيلو متهما اياه بالعمل للاستيلاء على عرش فرنسا والقضاء على اشرافها مستعملا المكر والخبث والدهاء ليظل مسيطرا على الملك لويس الثالث عشر وتبقى مقدرات الدولة بين يديه. كل ذلك بلهجة تهكمية تسودها المداعبة والتلاعب بالكلام . ومن اظرف ما فى الرسالة قوله وهو يسرد على لسان احد الاطباء اسماء «الداء الملكى» المصاب به الكردينال فيقول: «واسمه الرابع المرض المقوس لانه يشبه باختلاف الوانه قوس قزح اذ ترى فى عينى الكردينال هذه الالوان كلها: ففيه يرى سواد الحداد على من لا يحصى عددهم من النبلاء الذين اعدمهم بلا مبرر ، واصفرار العدد الكبير من اسياد فرنسا الذين شتت شملهم وسلبهم اموالهم، وبياض عمائم الاتراك (اشارة الى تحالف فرنسا مع تركيا) الخ... فانظروا ان كان الكردينال يشبه بالالوان قوس قزح. وانما هنالك فرق واحد وهو ان تلك الالوان فى قوس قزح عهد وامان وفى الكردينال شر وسهام» .

وفى موضع آخر يقول: «وترى فى قعرة تقع على حدة بالقرب من الجبين فوق العينين، ثغب من المزاج المائى اعجبنى امره اولا

لكنى رأيت فيما بعد انه دموع مستعارة يحتفظ بها ليبكى كلما اراد ارواء اكاذيبه وخدعه » .

والرسالة على صغرها تدل على مقدرة كيبيدو الفريدة فى الهجاء ومزج الجد بالهزل ونفوذه الى اعماق الحقائق واطلاعه على احوال عصره السياسية ودفاعه عن وطنه بقلمه السيال .

ملخص الخدمات التى اداها ضون فرنسيسكو غوميث دى ساندوبال دوكى دى ليرما

١٦٣٦

وضع كيبيدو هذه الرسالة الصغيرة سنة ١٦٣٦ . اكراما لذكرى الدوكى دى ليرما حفيد وزير فيليب الثالث .

ويبدأها باشارة الى الحرب القائمة آنئذ فى فلانديس وايطاليا وبنوع خاص الى انهزام الاسبانيين لتأخر وصول النجدة فى وقعة قنطرة كارينيان ووفاة الماركيس دى اسبينولا فما عند ما تلقى الخبر ويجدر بنا ان ننقل الى القراء هذا المشهد .

«توفى الماركيس الشجاع حين سمع ان رجاله نجوا احياء من المعركة . وسأل عن ابنه ان كان قد مات او اسر او جرح فأجيب ان لا. فصاح قائلا: «لا قتيل ولا جريح ولا أسير» ؟ وجعل يردد هذه العبارة الى ان فقد الرشد . ولم يلبث ان فارق الحياة فمات عمن لم يتجرأوا ان يموتوا ويا لها من ميتة. فقد علم من يحيون خائفين ان يموتوا خجلا» .

وان هذا المشهد ليذكرنا بالمشهد الذى صوره كورنيل فى مسرحيته «هوراس» حين يتلقى الاب نبأ موت اثنين من ابنائه

وهرب الثالث فيصيح مجيبا من سأله وما كان عساه ان يفعل بقوله : «فليمت» .

اما الدوكى دى ليرما فقد أرسل على رأس عشره آلاف محارب الى فلانديس ثم عاد الى اسبانيا وبعد مدة استأذن الملك بالعودة الى فلانديس. فكان احد القواد الاربعة الذين كانوا يتناوبون اسبوعيا فى القيادة. فأبدى شجاعة كبيرة واستولى على عدة مدن ومراكز وحصنها . وامتاز باخلاصه وتفانيه واقدامه ضاربا لجنوده المثل بالشجاعة وقد ادى به تفانيه الى تزعزع صحته فمرض مرضا شديدا اودى بحياته . فأسلم الروح فى بلدة ارنين فى ١٢ نوفمبر سنة ١٦٣٥

ويصف كيبيدو وفاته وصفا مؤثرا كنا نتمنى لولا ضيق المجال ان ننقله للقراء .

والرسالة على صغرها درة جديدة عى عقد مؤلفات كيبيدو، وتدل على اهتمامه بتدوين مآثر عظماء عصره ، وعلى طول باعه فى الوصف. وملاحظاته السياسية تبرز فى كل صفحة منددة بالاخطاء التى كانت ترتكب فى ادارة الشؤون الحربية .

حياة ماركو بروتو :

وضع كيبيدو هذا الكتاب بين سنتى ١٦٣٢ و ١٦٤٤ واودعه الكثير من آرائه السياسية الصائبة . وهو تعليق على حياة ماركو بروتو للمؤرخ الايطالى بلوتارك . فيأتى كيبيدو بالمقطع من نص كتاب بلوتاك ويردفه بتعليقه . والفكرة الاساسية التى يرمى اليها هى معرفة ما اذا كان بوسع امة ما ان تستعيد مجدها

التالد بعد ان اضاعت عاداتها القديمة، ويتطرق الى البحث فى الثورة على الحاكم المستبد وما ينصرف اليه الثائرون من ظلم واستبداد متى استقر بهم الحال واستولوا على مقاليد الحكم . فهو اذاً لا يرمى الى تجنب الثورات بل الى اظهار عدم فائدتها، وفى كل تعليقاته السياسية تعريض بالاوضاع القائمة ورجال الحكم المسيطرين حينئذ على اسبانيا واننا ننقل فيما يلى بعض المقاطع من هذا الكتاب .

من الخطاب الذى وضعه على لسان ماركو بروتو موجها لليغاريو حاضا اياه على الثورة لانقاذ الوطن: «فما دام يوليوس قيصر يحذو حذو تركينو (١) فانى انا ماركو بروتو سأحذو حذو خونيو (٢)... انى لأتذكر ما وقع اذاك حين وجد الشر المتفاقم حدا فى خنجر جدى ... ان فقد الحرية من صفات البهائم ولان نسمح بأخذها منا لمن شيم الجبناء . ومن يقبل بالعبودية ليحيا لا يعلم ان العبودية لا تستحق أن تسمى حياة وهو يسمح بأن يموت خوفا من ان لا يقتل... لا أكره فى قيصر الحياة بل الطمع . فكل ما له وما حصله انما هو عطية الاثم. فأخذه منه ليس تجريدا له بل حلا. وما يقبض من اللص عنفا انما هو ارجاع عادل... فالجرائم الصغرى هى التى تعاقب فى الدنيا اما الكبرى فتتوج وليس بمجرم الا من امكن عقابه اما الماكر الذى لا يمكن معاقبته فهو سيد» .

---

١) تركينو ـ خامس ملوك روما. مات مقتولا.
٢) خونيو ـ احد مؤسسى الجمهورية فى روما.

الفصل السادس

المؤلفات الانتقادية

ان كيبيدو نقادة قبل كل شيء . والنقد ملازم له فى جميع مؤلفاته من اى نوع كانت. وخصوصا فى المؤلفات الهجائية التى ليست فى الواقع الا نقدا مغالى فيه. لكنه ترك عدة مؤلفات خاصة بالنقد الادبى: اهمها «المتكلمة باللاتينية المثقفة» و «قصة القصص» و «الرد على الاب بينيدا» و «حسامه فى سبيل شنتياقب» و «بيرينولا» .

«فالمتكلمة باللاتينية المثقفة» انتقاد لاذع للنساء المتظاهرات بالعلم والثقافة . وهو يذكرنا بمسرحية «موليير» التى عنوانها «النساء العالمات».

و «قصة القصص» مؤلف ظريف جمع فيه كيبيدو الكثير من النوادر والتعابير الشعبية والامثال السائرة والتشابيه والشواهد الكلامية التى تعج بها اللغة الاسبانية وما زالت تتردد حتى اليوم على السنة العامة فى احاديثهم .

و «حسامة فى سبيل شنتياقب»، وقد تقدمت فى القسم الاول من هذا الكتاب الاشارة الى الظروف التى وضع فيها، هو

دفاع عن حق شنتياقب فى ان يكون شفيع اسبانيا الاوحد . ومع اعتراف كيبيندو بفضائل القديسة تيريزة يرى انه لا داعى لاشراكها بما هو من حق شنتياقب (القديس يعقوب) وحده.

و «لا بيرينولا» رد هجائى على مؤلف الدكتور بيريث دى مونطلبان الذى عنوانه «للجميع» . وبعد ان يكيل له الهجاء القارع بلهجة تهكمية ظريفة ينهى الكتاب بنصيحة يسديها له لكى ينقطع عن الكتابة والتأليف .

ومعظم هذه المؤلفات الانتقادية قد يستحيل تعريبها لان ظرافتها قائمة على تلاعب فى الالفاظ يفقد كل قيمة عند نقله الى لغة أخرى .

الفصل السابع

المؤلفات الفلسفية

ان مؤلفات كيبيدو كلها حافلة بالحكم . لكن آراؤه الفلسفية مجسمة فى ثلاثة منها بنوع خاص وهى : «فى مداواة كل داء» و «اسم مذهب الرواقيين ونشأته وفروعه» و «الحكم» .

فى مداوة كل داء :

هذا عنوان مؤلف للفيلسوف الاسبانى ـ اللاتينى سينيكا ترجمه كيبيدو وعلق عليه تعليقات قد تفوق احيانا الاصل ببلاغتها وعمق تفكيرها . وكان كيبيدو معجبا كل الاعجاب بآراء سينيكا وحكمه . وقد تأثر به تأثيرا كبيرا بحيث قلما يخلو واحد من كتبه من الاستشهاد ببعض اقواله . وهو يحذو حذوه حتى فى اسلوبه الانشائى. وفى المؤلف الذى صدرنا بعنوانه هذا الكلام يأتى كيبيدو اولا بمقطع من نص سينيكا ثم يردفه بتعليقه متبعا نفس الاسلوب الذى سلكه فى غيره من المؤلفات واننا نقتطف فيما يلى احد المقاطع الحكمية :

سينيكا : فقدت عينى

ولكن لليل ايضا متعته. «فقدت عينى!» كم من الشهوات اعميت طريقها !

ألا تدرى ان العمى جزء من البراءة ؟ فهذا تعلمه عيناه الزنى وذاك النفاق ؛ والواحد تريانه الدار التى يشتهيها والآخر المدينة وجميع الشرور. حقا انهما لتحرضان على الاثم وتدلان على الشر.

ضون فرنسيسكو دى كيبيدو

«اضعت عينى»! . اضعت ما هما سبب فى ضياع الكثيرين. انه لمن الشر ان لا يرى المرء لكنه شر من ذلك ان يرى الشر.

«اضعت عينى»! . لقد اضعت حسا طالما كان سببا فى ضياع جميع القوى .

«اضعت عينى»! لا ! لم احسن التعبير فانما اضاعتهما الشهوات الجامحة والعواطف الخبيثة . فلقد اقفلت اذا الباب فى وجه الرذائل كلها وبت لا ادرى اين اسير ولا الآثام تدرى من اين تأتينى .

«اضعت عينى»! فأصبحت أتعثر بما لا ارى ولكنه كان الامر اقبح من ذلك حين كنت ارى كيف اقع فى ما اشاهد.

«اضعت عينى» ! ليست بخسارة جسيمة تلك التى تغنى عنها خشبة وينوب عنها كليب ويقوم مقامها صبى .

«اضعت عينى»! من يعلم الشرور التى تسببانها لمن اغمضهما راضيا لكى لا يرى كما يغمضهما لينام ...

ان المرء لا يجد الراحة حتى يضيعهما . وقد قال سيدنا يسوع المسيح : «اذا شككتك عينك اليمنى فاقلعها وارمها عنك خارجا». فهذه الكلمات قانون لمن له عينان. اما لى وقد اضعتهما فهى سلوى» .

اسم مذهب الرواقيين ونشأته وفروعه

وضع كيبيدو هذا الكتاب بين سنتى ١٦٣٢ و ١٦٣٤ وهو يتألف من قسمين : «اصل المذهب الرواقى» و «الدفاع عن ابيقور» وفى آخر القسم الاول يعرض المؤلف موقفه الشخصى من الرواقيين عرضا يستدل منه انه كان مشاركا لهم روحيا . فاسمعه يقول : «لقد كان مذهبهم لى هدى فى الشبهات وسلوى فى المصائب وحمى فى الاضطهادات التى ملكت شطرا كبيرا من حياتى» .

وفى القسم الثانى يبين اوجه التشابه ونقط الاجتماع بين ابيقور والمذهب الرواقى . ويستشهد كيبيدو بكثير من الفلاسفة العظام وفى طليعتهم سينيكا ممن اشادوا بأبيقور ونقلوا آراءه وافكاره مقرونة بالثناء والاعجاب ومن جملة ما يقوله : «ان اقوال ابيقور لتتردد فى مؤلفات سينيكا اكثر من اقوال سقراط وافلاطون واريسطاطاليس وزينون »

الحكم

هذا المؤلف عبارة عن ١٢٢٤ حكمة وضعها كيبيدو فى ظروف مختلفة وطيلة سنين عديدة . فهى لا تدور حول موضوع

معين وانما هى عبارة عن مجموعة افكار وآراء فى مختلف مظاهر الحياة سجلها كيبيدو على ممر السنين وفى كل انواع الظروف حتى توفر منها هذا العدد فجعل منها هذه المجموعة التى ظلت مخطوطة حتى نشرها لاول مرة الاديب النقادة لويس استرانامارين ضمن مجموعة مؤلفات كيبيدو كاملة سنة ١٩٤٥ واننا ننقل هنا بضع حكم منها :

- ان اردت ان تكون محبوبا فكن محبا .
- الطمع يجعل الكثير قليلا والحاجة تجعل القليل كثيرا.
- ان النفوس العظيمة تأنف من الاعمال الحقيرة .
- لا شىء يغيظ الجميع مثل ما يفعل لارضاء الجميع .
- ان الحب جرىء اما الاحترام فجبان .
- ان سلطان الارض لا يقوى على النفوس .

الفصل الثامن

فى المؤلفات الزهدية

ترك كيبيدو ما يربو على خمسة عشر مؤلفا من هذا النوع وقد حلق فيها الى اعلى درجات الزهد والتفكير الدينى العميق . والحق يقال ان شخصية كيبيدو لمن اغرب الشخصيات اذ يكاد المرء لا يصدق ان واضع هذه المؤلفات كلها هو نفس الرجل الذى كتب ذلك العدد الكبير من المؤلفات الهزلية التى تبلغ درجة المجون احيانا . ولعل هذه احدى ميزات العبقرية . ولا شك ان حياة كيبيدو الحافلة بالمصائب كان لها اثر كبير فى توجيهه هذا التوجيه الزهدى الذى كان فيه صادقا كل الصدق .

وأهم مؤلفات كيبيدو الزهدية هى : «حياة الراهب طوماس دى بيانوبيا» و «المهد اللحد» و «الفضيلة المحاربة» و «صبر وثبات ايوب الصديق» و «عناية الله» و «حياة القديس بولس الرسول» .

حياة الراهب طوماس دى بيانوبيا

وضع كيبيدو هذا المؤلف سنة ١٦٢٠ . وهو فى الواقع ملخص لكتاب آخر اوسع منه فى نفس الموضوع كان يشتغل به منذ سنوات . فكتب هذا الملخص فى اثنى عشر يوما نزولا عند

رغبة احد الآباء الاغوسطينيين بمناسبة الاحتفال بتطويب الراهب طوماس دى بيانويبا الذى اعلن فيما بعد قديسا .

ولد طوماس دى بيانويبا فى بلدة فوينيانا من مقاطعة المانتشا سنة ١٤٨٨ من ابوين نبيلين . وفى سنة ١٥١٦ دخل الدير وفى السنة التالية نذر النذور الرهبانية . ولم يلبث ان عين رئيسا على الدير . وكانت حياته مثالا للجميع بتقواه وفضائله واشتهر بفصاحته كواعظ دينى فكان يستدعى من مختلف نواحى اسبانيا لالقاء المواعظ. وكم من زائغ عن الدين هدته كلمات الراهب طوماس دى بيانويبا .

وعرضت عليه سدة اسقفية غرناطة فرفضها رفضا تاما . وفى سنة ١٥٤٤ شغرت سدة اسقفية بلنسية فاراد الامبراطور كارلوس الخامس (شارلكان) اسنادها اليه فرفضها . لكنه اضطر فى نهاية الامر الى قبولها نزولا عند اوامر رؤسائه. وظل فى هذا المنصب احدى عشرة سنة حتى توفى سنة ١٥٥٥ وقد كان طيلة المدة التى قضاها على رأس الابريشية يغدق على رعيته الاحسان المادى والروحى حارما نفسه حتى من الحاجات الضرورية ليتمكن من مد يد المساعدة الى المساكين والمعوزين . وفى سنة ١٦٢٠ ـ سنة وضع هذا الملخص ـ احتفل بتطويبه وبعد سنوات اعلن قديسا .

ومن جملة ما يرويه عنه كيبيدو انه لما كان اسقف بلنسية دعا اليه خياطا ليصلح له جبة قديمة . وسأله عن الاجرة التى سيتقاضاها فقال له ان بليونين ـ وهى كمية زهيدة ـ فاستكثرها القديس واخذ يساومه الى ان تعب الخياط وقال له ان يدفع ما يشاء .

ثم حدث فيما بعد انه كان للخياط بنتان طلب يديهما منه ضابطان شابان. لكنه لم يكن يملك ما يجهزهما به. فشكا امره الى صديق له واشار عليه هذا بأن يستعين بالاسقف فاستنكف الخياط ذلك واخبره بما كان بينه وبينه . فالح عليه الصديق فذهب الى الاسقف وعرض عليه الامر . وما كان اشد استغرابه لما رأى الاسقف يعطيه ثلاثمائة ليرة لكل واحدة من البنتين وهو المهر الذى كان يطلبه الضابطان وفى صباح اليوم التالى استدعاه ثانية واعطاه خمسين ليرة أخرى لكل واحدة لتستعينا بها على قضاء حوائجهما . فارتمى الرجل على اقدام الاسقف طالبا الصفح والمعذرة فقال له القديس : «ألست أنت يا بنى الذى اصلحت لى جبتى وغضبت لانى ساومتك على الاجرة ؟ الا فاعلم انى انما اساوم على الاشياء التى تتعلق بشخصى لاقدر ان امد يد المساعدة لك ولغيرك وكن على ثقة انى حين اموت لن اترك مالا منسيا او مخبأ» .

المهد واللحد

يجتمع فى هذا المؤلف الزهد والفلسفة الرواقية . وهو يرمى الى اعداد المرء للموت منذ مولده مطلعا اياه على بطلان الامور الدنيوية ومبينا له اية هى الثروة الحقيقية التى يجب على المرء ان يسعى وراءها . وهو يتألف من قسمين : «المهد والحياة» و «الموت واللحد» . وها نحن نقدم للقارىء بعض المقاطع من هذا المؤلف القيم .

«انك لتبدأ بالموت قبل ان تعرف ما هى الحياة وتعيش دون ان تتمتع بها لان الدموع تسبق العقل . فان اردت ان تعرف حق المعرفة ما هى حياتك وحياة الجميع وما يرافقها من تعاسة فانظر الى ما تحتاج اليه من امور تعسة لتقوى على الاستمرار . فأى عشبة وأى حيوان واى حجر واى تراب واى عنصر من العناصر ليس جزءا من مأكلك وملبسك ومأواك ؟ فكيف يمكن الا يكون ضعيفا وعرضة للموت والشقاء من يعيش بموت بقية الكائنات الاخرى ؟ فان لبست فقد مات الحيوان الذى لبست صوفه وان اكلت فالحيوان الذى بلحمه تتغذى» .

وهاك مقطعا آخر يتكلم فيه عن خديعة المعرفة : «لا نفاق اكبر واضر واقل مستندا من نفاق المعرفة لانه لا يستند الا على الزعم .

«ما من تواضع يحمل بصاحبه الى الاعتراف بأن واحدا آخر أعلم منه . وان اعترف احدهم بأن شخصا آخر يوازيه معرفة فانما يعترف بذلك حيث يعلم انه لن يصدق وان كلامه سيحمل على وجه التواضع لا على وجه الصحة» .

«ان كل علمنا انما هو ادعاء يثبته جهل الغير . فما اكثر النحوى عجرفة لفهمه معانى الكلمات مع انه لا يعرف استعمالها فى اللغات الاخرى ! وبأى كبرياء ينظر الى الغير من يدعى انه ليس فى العبرانية او اليونانية ما يستعصى عليه مع انه فى واقع الامر يجهل لغته التى علمته اياها الطبيعة .

«الا والحق يقال ان معرفة هؤلاء الرجال بهذه الامور انما تستند على قولهم فقط . وانهم لا يعرفون اكثر مما يسلم به جهل الغير او مجاملتهم» .

واسمعه فى موضع آخر يحمل على الطرق العلمية التقليدية منتقدا فقد الطرق التجريبية فيقول :

«قليلون هم الذين يدرسون اليوم شيئا ما بأنفسهم وعقولهم وقد اكتفوا احدى الحقائق بالتجربة وانما نحن اسارى اليونان والرومان فى كل ما قالوه فى الامور الطبيعية ونتبجح باعتقادنا ما قالوه. ولذلك من الاولى ان يسمى المحدثون مؤمنين كما يسمى الاقدمون علماء. ولنكتف بأن نكون شهودا لما درسوه .

«اننا لندافع عن اى قول قاله اريسطو او افلاطون فى الفلسفة لا لاننا نعلم ان الامر هكذا حقيقة بل لانهما قالا بذلك الرأى».

الفضيلة المحاربة

العنوان الكامل لهذا المؤلف هو «الفضلة المحاربة ضد اوبئة العالم الاربعة : الحسد ونكران الجميل والكبرياء والبخل» فالعنوان اذاً يكفى لاعطاء القارىء فكرة عما يدور حوله الكتاب . فهو ينقسم بحكم المنطق الى اربعة اقسام افرد كل منها لواحد من تلك الاوبئة : وقد حلق هنا كيبيدو كما حلق فى معظم مؤلفاته الزهدية . وكأنك وأنت تطالعه هنا تسمع الى احد القديسيين العظام . وهو وان كان ينقل احيانا بعض اقوال سينيكا وغيره من الفلاسفة الاقدمين فانه كثيرا ما يعتمد على اقوال القديس اغوسطين والقديس يوحنا فم الذهب وبنوع خاص القديس بطرس كريسولوغو. ويسيطر على الكتاب من الفه الى يائه شعور دينى حى وروح زهدية عميقة. فمن جملة ما يقوله فى معرض

كلامه عن الحسد : «ومما يدل على دناءة الحسد انه لا حسود الا وهو واجد حسودا آخر يحسده .

«ولا يقتصر الحسد على الخير بل على الشر ايضا ؛ ولا على التكريمات بل على الاهانات ايضا. ولا على السعادة بل على الشقاء . والمرء اما حاسد او محسود والسواد الاكبر من الناس حساد ومحسودون معا . ومن لم يكن حسودا وان كان لا يملك ما يحسد عليه حسده الناس لانه ليس حسودا .

«واكثر الناس تذمرا من الحساد هم الذين يسعون دائما ليكونوا محسودين . فليتذمروا اذا مما يفعلون . وكثيرون هم الذين يفتخرون بكثرة حسادهم فهؤلاء هم شر حساد لانفسهم ».

«واكثر الناس شكوى من الحسد هم الحساد انفسهم وانهم فى شكواهم على حق لان الحسد انما يضر بهم وحدهم وان كان خطرا على الجمع .

«ان الحسد هزيل لانه يعض ولا يأكل. فهو كالكلب الكلب فما من شىء طيب الا ويعضه ولا شىء طيب يتجاوز انيابه. وما من حسود يعترف بأنه حسود ولا يشتكى من انه محسود . انه لا يريد ان يكون ما هو ويريد ان يكون الآخرون ما ليسوا هم فى الواقع ».

هذا واننا نكتفى بالاشارة الى المؤلفات السابقة دون ان نتعرض بالتفصيل لبقية المؤلفات الزهدية . ويكفى القول انها كلها من أروع ما سطرته يراعة فى هذا الباب. وهى عامرة بروح دينية عميقة وصادرة عن قلب مؤمن زهد فى الحياة زهدا صادقا .

وخلاصة القول ان كيبيدو فى طليعة كتاب اسبانيا ومفكريها ومؤلفاته النثرية تحتل فى الانتاج الادبى الاسبانى أرفع مقام .

الباب الثانى

المؤلفات الشعرية

يعد كيبيدو من اكمل شعراء اسبانيا قاطبة على ممر العصور كلها. وذلك انه لم يترك بابا الا طرقه ولا ميدانا الا خاضه فكان الجواد الذى لا يجارى والبطل الذى لا يقهر. ففى الغزل والهجاء والرثاء والحكم والشعر القصصى نراه يحلق فى ارفع الاجواء الشعرية. واننا نقتصر على تعريب بعض قصائده معترفين بعجزنا عن اداء شعر كيبيدو حقه من البلاغة .

تعريف فى الحب

انه لثلج محرق ونار مثلجة ؛
انه لجرح يؤلم ولا يشعر به ؛
انه لخير يحلم به وشر حاضر ؛
انه لراحة قصيرة متعبة كل التعب ؛
انه لاهمال يقلق بالنا ،
وجبان يحمل لقب شجاع ،
وماش وحيد بين الناس ؛
انه لحرية سجينة
تدوم حتى التوبة الاخيرة ،
ومرض يراجع ان شفا .
هذا هو الطفل «الحب» وهذه هوته .
فأية صداقة يا ترى يمكن أن يعقدها مع أحد
من كان فى كل شىء مخالفا لنفسه ذاتها !

مـن شعره الهجائـى :
يـا لـه مـن فارس مقتـدر السيد دينار

يا أماه ! انى لاخضع للذهب .
هو حبيبى ومحبى
لانه من شدة غرامه
لا تفارقه الصفرة .
فسواء كان قطعة كبيرة او صغيرة

يفعل كل ما يشاء .
يا له من فارس مقتدر !
السيد دينار !
يلد شريفا فى الهند
حيث يرافقه العالم
ثم يأتى فيموت فى اسبانيا
وفى جنوة يدفن .
فكل من حمله الى جانبه
جميل وان كان شرسا .
يا له من فارس مقتدر !
السيد دينار !

من المذكرة الشعرية التى رفعها الى الملك فيليب الرابع فى اوائل شهر ديسمبر سنة ١٦٣٩ ـ وقد اشير الى ذلك فى القسم الاول من هذا الكتاب .

يا صاحب الجلالة الكاثوليكية المقدسة الملكية.
الذى أقامكم الله على الارض مقامه :
ها هو ذا شيخ مسكين ساذج ونزيه
وحقير يدعوكم ويكلمكم وهو جاث .
سأقول ما هو حق واطلب من السماء
ألا احيد عن هذا القصد الذى يدفعنى اليه حرصى .

اننا نبكى هنا ونصعد التأوهات الحزينة
دون ان تبلغ شكوانا مسمعكم .
انك ايها السيد لتعجز عن سماع تأوهات
وشكاوى القشتاليتين : القديمة والجديدة .
الا سرح البصر فان اندلوسيا
اصبحت تمشى بلا حذاء وان كانت تلمع فى عهد مضى

* * *

ان اسبانيا لم تدفع لمائة ملك مجموعين
ما تدفعه فى عهدك من الضرائب
وقد اصبح الشعب المتالم يخشى
ان تفرض عليه ضرائب على التنفس .
وهناك عائلات بلا خبز وارامل بلا معاش
ينتظرن جائعات وافواههن مطبقة
وهناك وزير يأكل من النفقات فى ايام السلم
اكثر مما ينفقه فى الحرب عشرة وزراء .

* * *

ليس من العظمة سحق الضعيف
لأن الله وصي على الفراخ الصغيرة.
ولقد اصبح الشعب يسرق ويقتل دون رادع .
فيهزأ بالعقاب ويرمى بالحياة عرض الحائط
وتراه احيانا يقول : «ما همنا ألف مشنقة
ما دام الجوع والعراء اشنع منها ميتة ؟ »

* * *

انهم يبيعون محراث الفلاح الضعيف
ليصبوا لك منه شبابيك لا حاجة اليها
أجل ! انه يحق للملك ان ينعم وينفق
ولكنه من العدل ان يكون متزنا فى الانفاق وان يدفع له عليه.
وليس مثل هذه النفقات بقليل
متى كانت تؤخذ من افواه الكثيرين .
وليس من الحسن ان تفيض قطع الارجوان
متى كانت كلها تصبغ بدم الفقير .
ولا فائدة لكم تجنى ولا لذة تشعرون بها
فى عظمة يبكى بسببها هذا القدر الوافر من البؤساء .
الا اى شرف وأى قصور وأى أعياد
مثل مملكة جزلة تغنى ابتهاجا بكم ؟
وان الشعب الراتع فى بحبوحة اليسر ليزين ملكه
اكثر مما لو ارتدى افخر الملابس المحلاة بالماس.
وان كان الملك رأس الشعب
فمن الصعب ان يزين الرأس ان كان الجسم عاريا .

* * *

انك يا فيليب لكبير كالحفرة
وانما اقوله لك عن وجه التشبيه .
وكل من اخذ من الحفرة زادها اتساعا وكبرا .

نشيد الموت

ولا نرى ما نختتم به كتابنا اروع من هذه القصيدة التى كانت خاتمة مؤلفات كيبيدو :

«ايها الضيف الشقي! يا من تقيس بخطى مترددة جبين الجبل المرتفع وتعكر صفو سكونه الذى لم يعكره انسى قط !

فسواء أكنت تسير مضطربا فى طلب السماء التى تخفيها عنك اشجار باسقة فى ربوته او تطلب لك عزاء وسلوى عن غم جسيم يحرق قلبك بينما افكارك الطليقة تحلق فى الاجواء الفسيحة، قف مكانك وانس طريقك .

وان وقفت سمعت صوت حي مائت وتعليلاته :

فى الغار الحقير المظلم ، لحد الاجيال الفائتة ، يرقد روحى دفينا فى نفس جسمه .

كما ان حواسى كلها وقد ارقدها مخدر قتال وتحررت من صاحب ناكر للجميل تنام مستفيقة من رقادها الطويل بين اموال الارض وتتمتع بسلم هنيء بعد حرب شاقة !

فما اسعدني ! انا الذى وصلت الى مثل هذا المرفأ الامين لانني حين أموت حيا أحيا ميتا !

انا هو ذلك المائت الذى عرف ببكائه اكثر مما عرف باسمه او بغنائه العذب ! وانما لست انا الآن سوى شبح ذلك الرجل الذى ولد على ضفاف المانثناريس .

* * *

وهنا ترتاح أمانيَّ من جهد التنقلات الشاقة .

وهنا اقضى الساعات سريعة فى الحديث مع نفسى ممتثلا ما آمر به ذاتى .

* * *

وهذه الاشجار البرية الملتفة والثمار الحقيرة التى ينبتها

هذا الجبل (لكنها على حقارتها لذيذة) تعرض علي ليلا ونهارا مائدة شهية .

ولى من تلك العيون كؤوس من البلور الشفاف

وهكذا فان شكر الارض لاعمالى الفائتة هو الذى يتولى الآن اعالتى فى هذه البقعة .

وتلك العصافير تحاكى بتغريدها ملائكة العروش وبألحانها الطروبة احيانا والشجية احيانا اخرى ترافق جزلى ونحيبى .

* * *

لم اعد اخوض البحر بالمجذاف والشراع لا ولا اخشى طمع الاتراك .

ولم اعد اقوم بحراسة طويلة لادل على اثى من الفولاذ مثل سيفى .

ولم اعد قاتل نفسى وبائع روحى مقابل اجر زهيد .

ولا اسلم ذاتى للحظ مدفوعا بشهوة جامحة وامل اعمى لاحفر بيدى الاخطار التى اقع فيها .

ولن يعذب الارض محراثى طمعا بأرباح زائلة .

لا ولن ابكى حسدا على خير القريب اكثر من بكائى على ما لحقنى من ضرر .

* * *

لقد اصبح الهدوء يغمر رغباتى وحواسى وملأت السكينة نفسى . وبعد ان قهرت وأخضعت اهواء الجسد الجموح اصبحت انتظر ان يطلق الموت سراح النفس المقيدة بهذه الحياة لتصعد طائرة على جناح السرعة ، وعلى رأسها اكليل الغار بعد ان اتعبها

الاسر فى هذه الدنيا ، الى القصر الاعلى المرصع بالنجوم لتنعم بأفراح حرية جديدة وحالة جديدة .

أجل ! انى انتظر ان يتوارى جسمى بعد نهاية هذه الحرب فى احشاء الارض .

* * *

فأنت يا عابر السبيل الذى تسمعنى ! ان اردت ان تفر ظافرا من هذا العالم الذى تحاربه فامر ذهنك ان يخرج بعيدا لملاقاة الموت الذى يأتى فى كل ساعة للقضاء عليك .

لا تحفل بنفسك لانك ترى ان الحياة تفر خطوة خطوة وان احسن من ينعم بخيراتها هو اكثر الناس وطئا لها .

ألا فاسأم ايها الانسان السائر الى الموت من السعى لاقتناء الخيرات والكنوز فان الزمن سيكون فى النهاية وارثا لك وفى الاخير لا بد ان يتخلى عنك الذهب والفضة !

فاحي لنفسك وحدها ان امكنك لانك ان تمت فانما تموت لنفسك وحدها ايضا » .

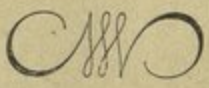

فهرس

صفحة

الاهداء ٧

مقدمة ٩

القسم الاول ـ حياته

الفصل الاول ـ عائلته ـ مولده ـ نشأته ـ بواكير انتاجه الادبي ١١

الفصل الثاني ـ كيبيدو في بلد الوليد ١٩

الفصل الثالث ـ كيبيدو في مدريد ـ نشاطه الادبي قبل سفره الى ايطاليا ٣٣

الفصل الرابع ـ كيبيدو في صقلية ٥٣

الفصل الخامس ـ حادثة البندقية ـ القطيعة بينه وبين اوصونا ـ العودة الى اسبانيا ٦٩

الفصل السادس ـ المحن الاولى واتصاله بالوزير الكوندي دي اوليفاريس ٧٩

الفصل السابع ـ كيبيدو صديق الكوندي دي اوليفاريس اعراضه عن المناصب ـ في طريق الزواج ٨٧

الفصل الثامن ـ اتصال كيبيدو بالدوكي دي مدينسلي ـ زواجه ـ عزلته في برج خوان اباد ١٠١

الفصل التاسع ـ كيبيدو فى برج خوان اباد ـ الحرب بين اسبانيا وفرنسا ـ الرد على بيان لويس الثالث عشر ـ مذكرة للملك فيليب الرابع وسجنه فى دير القديس مرقص فى ليون ١١١

الفصل العاشر ـ كيبيدو سجين فى دير القديس مرقص ـ عزل الكوندى دى اوليفاريس ـ اطلاق سراح كيبيدو مرضه الاخير ووفاته ١٢٧

القسم الثانى ـ مؤلفاته

الباب الاول ـ مؤلفاته النثرية ١٤٥

الفصل الاول ـ المؤلفات الهزلية ١٤٩

الفصل الثانى ـ المؤلفات القصصية ١٥٩

الفصل الثالث ـ المؤلفات الهجائية ـ الاخلاقية ١٦٣

الفصل الرابع ـ المؤلفات الاخلاقية ١٧٥

الفصل الخامس ـ المؤلفات السياسية ١٨١

الفصل السادس ـ المؤلفات الانتقادية ١٩٧

الفصل السابع ـ المؤلفات الفلسفية ١٩٩

الفصل الثامن ـ المؤلفات الزهدية ٢٠٣

الباب الثانى ـ المؤلفات الشعرية ٢١١

تم بعون الله طبع هذا الكتاب
يوم ١٦ جمادى الاولى ١٣٧٣ موافق
٢١ يناير سنة ١٩٥٤ - تطوان (المغرب)

DATE DUE

[redacted]
عبود ، ميشيل
فرنسيسكو كيبيدي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

[redacted]

عبود

[redacted]